البياتي والخيام وحافظ الأقدار ..

بقلم مدني صالح

ويظل الخيام عبر قرون فيها شاه ... وعبر أجيال سجدت للشاه لانه الشاه ... وعبر أحداث كثيرة في شؤون شتى صغيرة وكبيرة تلاشت وزالت مع زوال هيجان الانسان الفرد المشتعل في اعصار بلاده اللاجوهري ، وفي ثورة وغليان اللامنطقي ، وفي تخبط الانسان في ظلمات اللاطبيعي واللاانساني .

ويظل الخيام فردا منطقيا ، انسانا معبرا عن النوع جوهريا ومنطقيا وطبيعيا ، ومعاصرا بقدر حتمية الملازمة بين الوضعية الطبيعية المنطقية من جهة والانسان الخالد من الجهة الاخرى ... وذلك لان الجوهري المنطقي الطبيعي لا يكف عن ملازمة الانسان ولا ينفك عن المعاصرة لحظة ما دامت عصور وما دام انسان رغم اشتداد هيجان الانسان في اعصار بلادة الاعتبارات اللاانسانية والتي تشرف أفرادا في جيل كي تذل النوع وتهينه في مستقبل الاجيال ...

وكما يظل سقراط معاصرا مع مشرق كل شمس ، يظل المسيح وغاليلو وافلاطون والحلاج ... ويظلون وعلى جبين كل منهم قضية ، وقضية معاصرة وملازمة لي ولك وللبياتي وللخيام ، ولجميع الافراد في حدود طبيعية ومنطقية وانسانية النوع .

ويتقمص البياتي شخصية الخيام تارة ، ويلقي على الخيام أثوابا بياتية تارة أخرى ، حتى جاءت سيرة البياتي سيرة خيام بابلي معاصر وملازم لتطور أحداث الانسان ولحواره الداخلي ، بلا انقطاع ، وبتوافق مذهل ... وهكذا تأتيك أصوات البياتي عبر العصور المديدة ومن نيسابور ، فيصدها جدار بابلي ـ من بقايا ما قد شيد السحرة من صرح ـ ويرجعها أصداء خيامية ، تصف الحاضر كما وصفت الماضي وكما ستصف النوع اطلاقا ، عبر الزمن بلا انتهاء ، وحتى آخر الدنيا بلا نهاية ، رغم التخبطات البليدة والمستنزفة لسعادة الانسان ، بقيادة بلداء الاجيال وبخبرة بلهاء ما أجادوا الابحار قط الا حول الخطأ بحثا عن ليرة ، وحول الخرافة بحثا عن دينار ... وكم استبشرت الاجيال فرحا بخبرة البحارة ؟ يا لعذاب الحلاج !

وكم باركت الاجيال قيادات غبية ؟ يا لمحنة أبي العلاء ... وتبارك الاجيال الشقية كل دجال يتيه في الابحار حول بينه مرتين ، ويدعي انه قد دار حول الارض ألف مرة ومرة ... فيا لحيرة البياتي ، وحيرة كل حلاج ، وكل سقراط ، وكل غاليلو ، وكل خيام ، وكل آدم وكل انسان :

« ـ مولاي لا غالب الا الله ـ
فلتفسل السحابه
أدران هذي الارض هذي الغابه »

اذن ـ وستكون مقالتي هذه ابتدائية تعليمية ـ ففي الارض أدران ، وفي الارض سحابة ... وفي الواقع وعثاء ، وفي المتوقع قدرة تمسح عن الواقع كل ما تراكم من قذى حملته العيون عصورا طويلة وتمطت العصور ...

وهل أحسن من فرن السحاب لغسل أدران الارض ؟؟ اذن فالبياتي وباداء طبيعي ، وبسهولة وطبيعية الاستدعاء الذهني المتوقع في حدود الحس والتجريب ، يستمطر السماء ويستسقي سحابة ، كي تسيل أمواه السحابة وتجرف أدران هذي الارض ، غاسلة عار الظلم ، وعار الخطأ ، وعار ضيق الآفاق والصدور .

فالبياتي اذن طبيعي اداء ، ويجيد الحديث مع قرائه من خلال

المألوف المعروف حتى لدى من لا يجيد منهم العد الى العشرة ... والا فمن لا يعرف ان الغيث دلالة رحمة ، وان السحابة دلالة خير ، وان الماء ـ ماء السماء ـ خير غاسل لادران هذي الارض ؟؟

وأجمع الآن ـ طبقا استدعاء في صورة ذهنية ـ بشرا من جميع أقطار الارض ، ومن جميع العصور ، ومن مختلف المذاهب والعقائد والديانات ، والالوان واللغات ، واقرأ لهم : « فلتفسل السحابة ـ أدران هذي الارض هذي الغابة » وترجم هذه الفقرة الى لغاتهم المختلفة ، واخبرني ان بقي أحد منهم ما عرف بعد هذا ان البياتي قد أراد بالسحابة دلالة على صوت الحق ، وانه قد أراد بالادران دلالة على صراخ الباطل ، وانه قد استمطر السماء عدلا وجمالا وصوابا ، لكي تغسل السحابة أدران الباطل ، وأدران القبح ، وأدران الخطأ ..

اذن « فلتفسل السحابه ـ أدران هذي الارض ، هذي الغابه ـ ولينهض الموتى من القبور ـ ولتحرق الصاعقة الجسور ـ والجثث المنفوخة البطون ـ فحول رأس القيصر النسور ـ تحوم ، والامطار ـ تغسل جرحك الدفين تغسل الاشجار » .

فالبياتي يستعجل بعث الموتى بعد أن غسلت السحابة أدران هذي الارض ، وبعد أن أحرقت الصاعقة الجسور ، وقطعت صلة الارض الطاهرة بقيصر وبأدران ما فات ، وبعد أن أحرقت الصاعقة كل منتفخ بطن من أتباع قيصر ، وحامت تنقر منه وتأكل من رأسه الطير .

ويعتمد البياتي التلازم بين القيصر وأدران الارض ومنتفخي البطون والجسور في تركيب صورة أخذها حرفيا من أجل تقريبها الى الاذهان ، رغم كل ما في الاداء الحرفي من اعتداء على روعة النص ورغم التلازم الوثيق بين محلية الادب ـ مكانا وأحداثا وزمانا ـ والاداء الحرفي :

يمثل القيصر ، أولا وقبل كل شيء ، شخصية الطاغية « وهي شخصية تاريخية رسمت صورتها الشيوعية كفلسفة ، وخططت الثورة البلشفية ملامحها الاخيرة بنجاحها وبتوطيد الحكم القائم حاليا في

روسيا على أنقاض سلالة القياصرة التي سقطت بيد الثوار » .

وقد وفق البياتي في اعتماد «القيصر» ممثلا لشخصية الطاغية .. غير اني أرى لو ان البياتي اعتمد « نيرون » لحصل لشخصيته اجماع اكبر من الاجماع الذي حصل له حول « القيصر » ... هذا ان أراد البياتي « الخبر» أي ان أراد أن يقول « وليكن هكذا مصير كل طاغية » ، « فالقيصر » حينئذ أدنى الى خدمة الغرض وأقرب الى قضية الناس الراهنة ، اذ ما بقيت لمعارضة أشباه « نيرون » قيمة عملية وذلك لاختفاء الشخصيات الواقعية الممثلة له ...

ومهما يكن من أمر ، فأنا أكثر ما أكون ميلا الى اعتماد الجانب الخبري في الرمز والتمثيل وذلك لان الجانب الانشائي قد يسوق الكاتب ـ داريا أو في غفلة سواء ـ الى تصغير القضية وحبسها في قوقعة المرارات الضئيلة والمتصفة بروح محلية الاحداث وباسلوبها الجرائدي ... وما قيمة جرائد الصباح في منتصف النهار ؟

ولئن خطر في ذهن القارىء هنا شيء عن الالتزام فيالادب والفكر والفن وعن واجب المفكر في المجتمع ، فليحضر في ذهنه ـ مع ما يخطر له حول هذه المفاهيم ـ أنني أضع حدودا جادة لتعريف النص الادبي والعبارة الفنية ومذاهب النكر ... وبداية هذه الحدود عندي البراءة ، والتلقائية ، والاندفاع ، في حدود طبيعة الانسان ، وفق معطيات يقين العلم ونور الوجدان ومن أجل انسان أقل خوفا وأكثر كرامة واستقامة واتزانا ..

وحتما لا أحسن لكاتب أن يعتمد الانشاء المباشر من أجل فضح فرد فاسد بالذات ، أو التشهير بأفراد معينين قد يتطرق الى شخصياتهم الظن أو تتسرب اليهم الاشارة ... كما ألح على أن يثبت في ذهن القارىء بأنني لا أستحسن لا من قريب ولا من بعيد ، أن يسخر الجانب الخبري من الرمز لكي يخدم التشهير بفرد أو بأفراد.. ان مثل هذا التشهير يخرج الادب والفن والفكر من سمواته العالية ويهبط به الى مستوى الكفاح الجرائدي الملاحق للمختلسين والمرتشين وأهل المفاسد الاخرى ... فأنا حينئذ أعفي المفكر من وظائف القضاء وأجهزة الامن والتحقيق .. لكنني أذهب ، وبتطرف ، الى أن ينصرف الكاتب ـ مصورا ـ والقارىء ـ متخيلا ـ الى هتك ستر النوعالفاسد وسواء اعتمد الكاتب الخبر أو الانشاء في الرمز والتمثيل ... انمثل هذا لا يسيء الى فرد معين الا بقدر ما يوظف بعض من الناس أنفسهم جبهة دفاع عن أدران هذي الارض فيهجون بدافع من اخلاص لهذه الادران ويدفعهم الاخلاص للفساد الى استعداء جميع الامكانيات المنقوصة الشرف على أي شخص يستمطر سحابة لتغسل السحابة أدران هذي الارض هذي الغابة ...

ان هذا اللون من الوظائف قد ساهم مساهمة فعالة في منع عبور الفكر العربي الى مرحلة معاصرة من تاريخ البشر ... مرحلة ما بعد المدرسية ... مرحلة ما بعد النهضة ... وهي مرحلة تتصف بالتكاملية والنسبية والديناميكية والانسانية : معتمدة الانسان مقياسا للتقييم بصرف النظر عن أي اعتبار آخر ... ونسبة ديناميكية : آخذة بمعطيات العلم لا بمعطيات السياسة ...

ان الاخذ بمعطيات السياسة ـ آخذين بنظر الاعتبار طبيعة السياسة عموما وطبيعة الحكومات العربية ـ لا يعطي فكرا ، بل يعطي أسلوبا يتخذ أشكالا شتى ويظل رغم تعدد الاشكال بعيدا عن بلوغ حد سيادة وسلطان وكرامة الفكر في حدود الحق والجمال والصواب ... وفي حدود العطاء دفقا وكرما بعفوية وبراءة واندفاع : عفوية العقل عطاء ، وبراءة الذمة صدقا واخلاصا ، واندفاع حرارة الايمان في قيود الحق والجمال والصواب ...

أما أن ينطلق الفكر من معطيات السياسة فهذا يعني أن يلجأ المفكر الى اعتماد وجهة نظر خاصة في تصريف أمور معينة ، منطلقا للفكر ... وفي هذا ما فيه من هبوط بالفكر من سمواته الكريمة الى أسفل ... ويقود الفكر في مثل هذا الهبوط أناس ما كانت كرامة الفكر والانسان هما من همومهم الجدية قط ... لكنهم يتيهون حول بيوتهم في جميع الاحوال مرتين في كل طواف ويرجعون الى الناس بأخبار الاولين والآخرين .. ومن أخبارهم ان غاليلو قد كفر وأذنب وتزندق وانه اعتقد بأن الارض تدور .. وليحرق ان لم يرتد عن غيه وضلاله بالنار ... وواجه سقراط الحالة بالخضوع لاوامر الاثينيين وتجرع السم نزولا عند حكم قضاء المدينة ... أما المسيح ، فقد حمل صليبه ومشى الى حيث صلبه الذين أراد بهم خيرا وكل آثامه انه قال : أحبوا بعضكم ...

أما المتنبي فقد واجه الحالة مغنيا هجاء ، ومفاخرا باداء ذاتي مسرف في حب الذات وعلى مستوى حرفي :

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثلما تهب اللئام
ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لهم جثث ضخام

حين يلملم البياتي جميع وجوه القضية باداء فيه سخرية ، وفيه مرارة ، وفيه استعلاء ، وفيه استهزاء ، وفيه دفاع عن المنطقي الطبيعي في حدود حتمية طبيعة الاشياء ، ومعطيات العلم :

« اذا أردتم سادتي أقول
بأن هذي الارض لا تدور
ولا يغطي نصفها الديجور »

وهكذا تجد ان المفكرين يختلفون موقفا واداء وسط هيجان أوهام وعادات تستمد مقومات قدسيتها من طول تشبث الناس بها « كمحض أوهام » ومن طول ما ألفوها عادة ...

ولا أعرف بعد أبي العلاء في تاريخ آداب وفلسفة العرب من أوقف جهدا فكريا معتبرا لتعيين مكانته موقفا واداء من أزمة المفكر وصراعه ما أوقف البياتي من جهد ـ داريا بهذا أم غير شاعر ـ سواء .

فالغزالي ، وهو حجة الاسلام بجدارة لا ينال منها شك ولا يطرقها ريب ، يخبرنا انه يصنف آراءه الى ثلاثة أصناف :

١ ـ رأي لكل سائل ومسترشد .

٢ ـ ورأي لا يطلع عليه سوى ذوي النباهة والمخلصين والمقدرين للفضل والكاتمين للسر .

٣ ـ ورأي لا يطلع عليه الغزالي أحدا أبدا ويحفظه سرا في نفسه لا يعلمه الا الله .

أما بقية الفلاسفة في الاسلام فقد أجمعوا على انالفرد الفيلسوف لا يستطيع ضمان تعايش سلمي في البيئة الاسلامية الا عن طريق ازدواجية الفكر ـ يفكر لنفسه ولاقرانه بوجه ويواجه البيئة بوجه آخر ... هكذا كان موقف عظماء الفلاسفة في الاسلام ، من الفارابي الى ابن رشد ... حتى لنجد كبيرهم ، وهو ابن سيناء ، يبرر ثنائية بنية الفيلسوف الفكرية بثنائية الانبياء ، فيقرر جزئيا ما فحواه : « أنى كان للنبي محمد وللنبي موسى مفاتحة العرب والعبرانيين بالحقيقة كما هي ؟ » .. ثم يذهب ابن سيناء الى ان الانبياء لاذوا بالتبسيط من أجل تقريب الوحي الى ضعاف العقول من الناس . ولا يهمنا من هذه الفكرة الآن الا جانبها التبريري والذي استمد منه ابن سيناء فتوى تبرر وتجيز مبدأ الثنائية في شخصية الفيلسوف الفكرية ، وتقرر أخلاقية الفكر بوجهين : وجه للحق ، وآخر للمجاملة ولمراعاة الظروف والاحوال .

أما المتصوفة والاشراقيون فقد لاذوا بالصمت وبالرموز وبالهجرة ومغادرة الاوطان عقليا وفكريا وروحيا ... فهم الغرباء كما يسميهم الفارابي ، وكما يسميهم ابن باجه ، وكما يسمون أنفسهم أحيانا ... وهذا يعني انهم قد نفضوا أيديهم من شؤون الدنيا والمجتمع وانسحبوا بافكارهم وهاجروا بأرواحهم الى اخبات ونعيم عوالم ما بعد الطبيعة الناعمة : « حيث لا يشتعل الانسان في اليم على ظهر سفينة » وبقيت منهم بين الناس الجسوم وليست للجسوم آراء في شؤون المجتمع والحياة ... اذن فهم الغرباء ... ومن هؤلاء السهروردي المقتول في حلب والحلاج المصلوب في بغداد ... وظن ما تشاء .

وآثرت النحلة الفكرية الرابعة دفاعا عن العقيدة الاسلامية واصطنعت المنطق وسيلة لتقوية وتوسيع وتحصين العقيدة ... فكان

من هذا الميدان الفكري استقامة « علم الكلام » وظهر متكلمون من الطراز الاول فيهم المعتزلة وفيهم الاشاعرة ، وفيهم من كل فيلسوف جهة ومن كل متصوف جانب .

« والارض لا تدور ـ ولا يغطي نصفها الديجور »

ونشط القصب يشيل من الحبر ويحط على الكاغد ما يضحك الخليفة حتى يستلقي على قفاه من الضحك ، وما يبكيه حتى تخضل لحيته من الدمع ، وما ان أغضبه منه شيء أمر السياف ... أو السجان ان رق للخليفة قلب أو لان منه جانب ...

وكثرت عطايا السلطان الى كل مداح هجاء ، وكثر دفع الخليفة لكيس الليرات وصرة الدنانير الى أصحاب الامتاع والمؤانسة : أولئك الذين يقولون أو يكتبون للخليفة أشياء لطيفة خفيفة تمتعه حتى يستلقي على قفاه من الضحك ، وتؤنسه حتى تهتز لحيته من الانس والطرب ...

وأزمة الفكر العربي تكمن في انسياق عملية غمس القصب في الحبر وتمشيته على الكاغد وفق معطيات السياسة ... ان هذا قد يعطي الحكام ، في فترة معينة ، أمنا وطمأنينة ودعاية حسنة ، تسكت المعارضة ، وتكثر المؤيدين والانصار ... لكن ما قيمة كل هذا ان غابت عين الحاكم ؟ ما قيمة دعاية وبأسلوب جرائدي تمهيدا لحدث وفق مشيئة سلطان ان تقاعد السلطان أو شاخ أو مات ؟ أو قل .. ان أعفي من المنصب أو استقال ؟؟؟

واستوحى المتنبي السحاب بين يدي كافور في قصيدة ملهمة حتى تناثر الجمان :

« تزيد عطاياه على اللبث كثرة
وتلبث أمواه السحاب فتنضب »

وهي قضية عطايا وقضية استجداء بأسلوب بليغ ـ والبلاغة كانت وسيلة استجداء ووسيلة تسرية عن النفس ووسيلة امتاع ومؤانسة في قصر أكثر من كافور وفي بلاط أكثر من سيف دولة ..

لكن ماذا ؟ ـ مات كافور ومات المتنبي وانقطعت العطايا الا عطايا من وارثي خصائص كافور الى وارثي شمائل وسجايا المتنبي ... والباقيات الصالحات في سموات الفكر لا لاستيحاء السحابة بين يدي كافور بل بين يدي الحق :

و « لنقرأ الكتاب بالمقلوب منقبين في حواشيه عن المكتوب والمحجوب » .. « أيتها النجوم ، بابل تحت خيمة الليل الى الابد ـ تعوي على أطلالها الذئاب ـ ويملأ التراب ـ عيونها الفارغة الحزينة ـ بابل تحت قدم الزمان ـ تنتظر البعث ، فيا عشتار ـ قومي املئي الجرار ـ وبللي شفاه هذا الاسد الجريح ، وانتظري مع الذئاب ونواح الريح ـ ولتنزلي الامطار في هذه الخرائب الكئيبة .. يا بابل الحبيبة » .. « مولاي : لا غالب الا الله .. ولتحرق الصاعقة الجسور ـ والجثث المنفوخة البطون » .

وهل في الاسماء ما هو أدنى وأقرب الى المنتفعين من اسم «نفخة» وانتفاخ البطون ؟؟؟ حتما لا ، فعشاء الحر رغيف خبز طاهر ، والا فجوع ليلة وتقشف يطول .. وليست للحر بطن ، ثق ! وللارذلين بطون ما امتلأت قط ولن تمتلىء حتى ولو صبت فيها جميع شطوط السحت..

ارأيت الان كيف اجاد البياتي تسمية المنتفعين ؟ اتباع القيصر ؟ والمطبلين في مواكب الجهل الاكبر ؟ والذين تفتح أفواههم اللامجدية ليرة ؟ ويغلقها دينار ؟ ويفتالون الكرامة والانسانية علانية وفي الظهيرة وفي وضح النهار ؟

وتمطر السماء وتغسل الارض وتحيي الرجال . محض صورة مألوفة في اذهاننا عن البعث وعن التلازم الثابت بين الماء ومظاهر الحياة ...

ثم تنزل الصاعقة فتحرق الجسور وبهذا يصور البياتي انقطاع صلة الارض التي غسلت السحابة ادرانها وبعث الغيث موتاها ... صلة الارض الطيبة بماضيها الفاسد الموبوء بذوي البطون المنتفخة وبالقيصر وبالطاغية وبالخطا والخرافة ...

ويتفاءل البياتي متقمصا شخصية الخيام ومتخذا من هذا التقمص حماية وغطاء ومعطيا ادبا يجاوز المحلية فكرا والحرفية اداء الى اجواء انسانية تألفها ذهنية الانسان بما هو انسان وبصرف النظر عن اي اعتبار طارىء ... ومجاوزا من خلال تقمص شخصية الخيام حدود ما يصدق على افراد جيل في زمن محدود وأحداث معينة الى ما يصدق على جميع افراد كل جيل وفي جميع الاحداث وفي كل زمان ومكان اطلاقا . ولنقرأ أفراح البياتي واستبشاره بقوس قزح وقد راق الجو وزالت العاصفة وخمدت الصاعقة :

« مولاي لا غالب الا الله
فآه ثم آه
مملكة الموتى على اسوارها الحراس
يرنق النعاس
عيونهم ، فلتفتح البوابة
وليدخل الغالب والمغلوب
فالفجر في الدروب
عما قريب ، يوقظ الحراس
ويقرع الاجراس » ...

وعند هذا الحد أريد من القارىء وقفة فيها شيء من تريث وروية، واريد منه ان يربط في هذه الوقفة « فتح البوابة » و « الفجر في الدروب » و « قرع الاجراس » و « السحابة » وعلى نحو ما يلي :

مرت فوق الارض الييباب سحابة ... واستبشر الشاعر وصلى استسقاء ، فقبلت صلوات ، واستجيبت دعوات ، وجادت السماء بالغيث ، واحيا الغيث يابس الموات واخضرت الارض الطاهرة، ونزلت صاعقة أحرقت جميع جسور عودة الارض الى ماضيها الميت الموبوء بالادران ، أدران الجهل والخرافة والخطأ ، وادران القبح والظلم وضيق الافاق والتحجر ... وادران البلادة والصراخ والهيجان والتعنتر !

وابتسمت الارض اذ ضحكت السماء ورقص على زرقة الافاق قوس قزح : فلتفتح الابواب اذا وتضحك الشبابيك ، ولتقرع الاجراس ... أجراس عودة الحياة ... وأجراس اخضرار الارض وسيادة الربيع وعودة الحياة : فالفجر في الدروب «وليدخل الغالب والمغلوب» فالكل آمن والطمأنينة للجميع ... « مولاي لا غالب الا الله » .

ويلملم البياتي جوانب القضية ملقيا على الصورة الرائعة لونا من مسحة الاساطير الشائعة والتي هي من نوع : وقال الساحر لحاكم المدينة ، او : وقال السحرة للملك ، او : واجمع الكهنة امرهم ... وعلى نحو ما يلي :

« مولاي قال النجم لي وقالت الاقدار باننا ممثلون فاشلون فوق هذا المسرح المنهار وان هذي النار الشاهد الوليد في محكمة الزمان ، تصدع الايوان ، واحترقت أوراقنا الخضراء في الحديقة المعطار والعندليب طار . مولاي : لا غالب الا الله » .

ان المقطعين :

« فلتغسل السحابة ـ ادران هذي الارض ، هذي الغابة ولينهض الموتى من القبور » .

و « مملكة الموتى على اسوارها الحراس ـ يرنق النعاس ـ عيونهم، فلتفتح البوابة ـ وليدخل الغالب والمغلوب ـ فالفجر في الدروب ـ عما قريب ، يوقظ الحراس ـ ويقرع الاجراس » من « الذي يأتي ولا يأتي » محض ترجيع اصداء للمقطع :

« نبع جديد ... نبع تفجر في موات حياتنا ـ نبع جديد ـ فليدفن الاموات موتاهم وتكنسح السيول ـ هذي الابارق القبيحة ، والطبول ـ ولتفتح الابواب للشمس الوضيئة والربيع » من ابارق مهشمة : المجموعة الثانية من بواكير الشاعر بعد «ملائكة وشياطين».

وهذا لون من شعر يثير في النفس حزنا أو ألما لكن لا يذكي نار حقد أو جذوة ضغينة ...

ويثير في اعمق الاعماق احساسا بالتعاطف والرحمة ، ويلقي على

جوارح الانسان وملكاته مسحة من هدوء وظلالا من سكينة ومسحة من روية وبرود عقلي ، في حدود امكانيات الانسان طبيعية ومنطقية ـ وهذا هو الشعر ... وهذا هو الفكر : محاولة تحديد موقف من اجل سعادة الانسان لا من اجل الاساءة الى فلان ، او الف فلان ..

ثم ـ وفي خاتمة هذه الفقرة ـ هذا لون من شعر تقرأه هادئا مطمئنا ، ساكن الاوصال صافي الذهن ، فيطهرك وينقيك ، ويقويك على الشدة ... ويقويك باحساسات نبيلة عميقة ، وبتأملات ذكية، فاحصة ممحصة في سبيل حل صائب باسلوب حكيم ، من اجل حياة احسن في عصور ما عادت جاهلية ، ولا اموية ولا عباسية ... في حياةمعاصرة تعتمد برود الذهنية فلسفيا ، وصمت دأب الملاحظة والتجريب علميا من اجل التعرف على قوانين الطبيعة وتذليلها فالحضارة صراع بين الطبيعة والانسان ، وان الانسان لا يحقق حضارة الا بقدر فهمه للطبيعة وتطويعها عن طريق اكتشاف قوانينها ...

ان عالما في مختبر فيزياء او كيماويا ينقطع الى مباحث في الذرة اقوى من جميع سكان هذا الكوكب جنودا مشاة أو على ظهور الخيل..

وان مكتشف قوة البخار اقوى من جميع من ركب الحمير والبغال والفيلة والابل والخيول المطهمة ... وان قاطرة واحدة اكثر كفاءة من جميع ابل الصحراء وخيول العرب المطهمة وفيلة الهنود .

اجل تبدلت الدنيا وتطور كل شيء وتبدل « صارت اللعبة اخطر» وان فكرة صائبة اقوى في مجال التفسير من جميع الخطب الطائشة الهوج ومن جميع الخرائد الصارخة المستصرخة .

ولكل فترة من حضارة البشر طابع واسلوب ، وطابع هذه الفترة فلسفة تأخذ بمعطيات العلم ، وفكر يستمد مقوماته من هذا اللون من الفلسفة ، وفن ـ بما فيه الشعر ـ يعايش هذا اللون من الفكر ، وهذا هو اسلوب الشعر الحديث وكما يمثله البياتي والسياب في العراق .

اذا فليست القضية قضية عروض وقضية وزن وتفعيلة وقافية، حتما لا « صارت اللعبة اخطر » و « لتغسل السحابة ادران هذي الارض ، هذي الغابة » فهذا شعر الحاضر المتحضر ، وشعر روح العصر ... عصر تطوير وتنمية ضمير فردي في اطار حاسة اجتماعية نبيلة... عصر من عصور حديثة مهد لها ديكارت والديكارتيون ففصلوا الفلسفة من اللاهوت ، ورفع سبينوزا في مرحلة التمهيد راية حرية التفكير وتسامح الفكر ... الراية التي حملها جوتيه وكوليردج وشيلر وبقية الرومانتيكيين الانسانيين ... وهو عصر من عصور مهدت لها الفلسفة الحسية التجريبية متمثلة في عظماء منهم جون لوك وباركلي وديفيد هيوم ... ثم هو عصر من عصور مهد له رائد المادية الميكانيكية في العصور الحديثة ... ونريد به توماس هوبز .

ثم هو خلاصة عصور بدأت منهجيا وبدأت بمحاولة جدية برهنت جدارة ونجاحا ، في تقويم العقل ، واصلاح المنطق ، وتوطيد مناهج نقدية توجيهية في الفلسفة والعلم والفكر عامة ... وهذا يعني ان هذا العصر خلاصة عصور ينتظمها منهجيا تأملات ديكارت ومقالته في المنهج وفينومنولوجية هيجل ، ومقالة جون لوك في اصلاح الفكر الانساني ، واوركانون بيكن ...

وخلاصة عصور حديثة اهملت المدرسية واقامت المنهج على معطيات فلسفة الاغريق وصدرت بالفن (مقالة ورواية وشعرا ونحتا ونقدا) وبالحياة (مجتمعا وسياسة واخلاقا) من أصول اغريقيةمساوقة معطيات علم وفلسفة مرحلة ما بعد المنهج ...

وانتظم المنهج خط الفكر في وحدة انسانية وفي موكب كلاسيكي مهيب من هوميروس حتى سارتر واليليوت .

ويحاول البياتي وسط ضجة صعوبات مذهلة ان يدخل صف الكلاسيك المهيب وان يدخل معه الحلاج والمعري والخيام ...

فليست قضية التجديد اذا بقضية عروض ووزن وقافية وتفعيلة ... لا . انها قضية تحديد موقف ، ومواكبة عصر ، والاخذ بيد انسان. انها قضية تجديد فكر من اجل حياة جديدة ، وقضية تجديد حياة من اجل فكر جديد ، وقضية بعث الخيام يحكي للمعاصرين سيرة ذاتية.. سيرة خيام يألفه الناس في بغداد وحلب وبيروت ، كما يعرفه الناس في لندن وروما وباريس ، وكما يستأنس به الهنود والروس واهل الصين ، وكما يألفه الانسان المعاصر ... الخيام حقيقة ، والخيام اسطورة ، والخيام بين بين .. والخيام صاحب طريقة ومنتهج سبيل حياة واسلوب عيش وفكر ... الخيام اسطورة ، والخيام متلاشيا عند حد تداخل الحقيقة بالاسطورة : حد تلاشي الواقع الراهن بالتصور وبالخيال .. الخيام الفيلسوف الرياضي ، الحكيم ، الفلكي ، الطبيعي، الشاعر التقي الورع ، الخليع المتهتك ، وكل شيء ، وكل ما يخطر على البال بين بين ... بين الاسطورة والحقيقة ، حيث بين الولاية والزندقة شعرة ، وحيث بين الايمان والالحاد اقل من شعرة ، وحيث بين المعرفة حتى مرتبة الكهانة والجهل حتى درجة البلاهة لحظة من تصور او عشر معشار لحظة من خيال ، وحيث الخيام فكرة تستدعي فكرة ، وشخصية تستوحي شخصية وتتقمص شخصية ، ويتقمصها شاعر معاصر ليقترب بهذا التقمص من روح العصر خطوة ! . وحيث بين ازل الازال قدما في لانهاية البداية ، وابد الاباد مستقبلا في اللانهاية ، محض فكرة تخلط الشطين في خليج ، والخليجين في بحر ، والبحرين في محيط ... انسان ولا غير انسان ... انسان ولا غريب في طبيعة السماء على الانسان ، ولا غريب في طبيعة ما على الارض ، وما في الارض ، وما بين السماء والارض على الانسان، وعلى البياتي والخيام ، فكل ما هو انساني طبيعي ، وكل ما هو طبيعي انساني ، وكل ما هو انساني منطقي ـ في حدود حتمية ان لا منطقية ولا معقولية الا للفكرة المنسجمة مع حتمية الطبيعي الصرف في تجربة الانسان وفي تجربة اختلاط الشطوط في الخليج ، والخلجان في الابحر ، والابحر كل البحار في المحيط ... وماء الامطار واحد قبل ان يلامس المطر الهواء ، وقبل ان يلامس المطر الارض « وظن ما تشاء ـ فباطن الاشياء ظاهرها ـ وظاهر الاشياء باطنها وظن ما تشاء ...».

لا مت يا خيام ... لا مت يا هابيل يا قابيل يا ادم يا انسان.. لا مت يا ايلول يا ايار يا نيسان ... والخمر في العنقود ...والنار في الاوراق في الازهار في الاغصان ... « تبادل النهران مجريهما واحترقا تحت سماء الصيف في القيعان » واختلط الشطان يا انت يا هابيل يا قابيل يا ادم يا خيام يا انسان ... لا مت يا خيام :

« فاليوم اصبحنا كبارا ايها الزورق
وامتدت الافاق حتى اخر الدنيا
وامتد نهر الشيب في الصدغين والمفرق »
فلترجع الايام يا خيام :
« هرمت الف مرة وعاد لي الشباب » .
ولترجع الايام يا خيام :
« القمر الاعمى ببطن الحوت
وانت في الغربة لا تحيا ولا تموت .
نار المجوس انطفأت »

فاوقد الفانوس ـ اموت في كاس حليب ساخن ... قالت ، ومدت يدها : اهواك وابتسم الملاك ... عائشة ماتت ولكني اراها مثلما اراك ـ قالت ، ومدت يدها : اهواك وابتسم الملاك ـ فلتمطري ايتها السحابة ايان شئت ، فغدا ، تخضر نيسابور ـ تعود لي من قبرها المهجور ـ تمسح خدي وتروي الصخر والعظام ـ يأتي ولا يأتي ، اراه مقبلا نحوي ولا اراه ـ تشير لي يداه .. » .

وفي روعة هذه الاجواء يستحيي البياتي الموات بدعاء ضمن حدود الطبيعي المألوف في حدود الحياة .

« الميت الحي بلا زاد ولا معاد ـ ينفخ في الرماد ـ لعل نيسابور ـ تخلع كالحية ثوب حزنها وتكسر الاصفاد » ..

ثم تبدأ سيرة الخيام الذاتية باداء بياتي رائع وشاعرية مذهلة.. وتبدأ السيرة بالمولد حاكية قصة الطفولة :

« ولدت في جحيم نيسابور
قتلت نفسي مرتين ، ضاع مني الخيط والعصفور

بثمن الخبز ، اشتريت زنبقا
بثمن الدواء
صنعت تاجا منه للمدينة الفاضلة البعيده
لامنا الارض التي تولد كل لحظة جديدة ... »

فمن اشترى قط بثمن الخبز زنبقا وسهر جائعا حتى مطلع الشمس ؟ من جرب هذا قط ؟ من ؟ لا عاش من ما جرب أو فليكن ما شاء ... صخرة ... قطعة حجر . او فليجرب ... أو ـ وعلى اقل تقدير ـ ليتصور اذ ان مثل هذا التصور من مستلزمات تقدير صورة ادم ، هابيل قابيل او بياتي ، او انت ، أو خيام يشتري بثمن الخبز شدة ورد ، أو وردة واحدة ، او وردتين ، او زنبقة او زنبقتين ، او شدة زنبق من نرجس او سوسن ، يمشي بها عشية فترتعش لها عند الباب في غمرة الفرحة كفان ، وتبتسم لها نجمتان ، وترقص من فرط البشر خيوط الفستان قوس قزح طربا مرتين ... وتبتل ، قبل الموت عطشا ، شفتا شهيد العطش الاكبر ، بقطرة من ماء فرات او قطرتين ، ويموت حسينا ، نمطا ممثلا لافلاطون والمسيح والحسين ، ومثلا أعلى لاولئك الذين ماتوا عطشا ـ ان حرفيا كما مات الحسين او مجازا كما مات افلاطون وسقراط والف مسيح والف حسين ... ممن صاغوا بثمن الخبز تاجا للمدينة المؤلة والمملكة الفاضلة فمثلهم البياتي ـ اداء ـ في سيرة الخيام ـ رمزا :

« بثمن الدواء
صنعت تاجا منه للمدينة الفاضلة البعيده
لامنا الارض التي تولد كل لحظة جديدة »

ولهذه الصورة مستويات دلالات كثيرة :

١ ـ منها المستوى السايكو ـ اجتماعي ، المتمثل في الرغبة في مستقبل افضل وفي النزوع الى حياة احسن .

٢ ـ ومنها المستوى الاخلاقي ، القائم على المستوى السايكو ـ اجتماعي ، والمتمثل في انكار الذات في الحاضر من اجل حياة اكثر عدلا وجمالا وخيرا في مملكة فاضلة ، لاجيال صاعدة ، في نسغ حياة شجرة المستقبل ... انكار ذات تحترق لتضيء للغير ... وتموت عطشا لتروي عطش الغير ... وتموت بملء الارادة فناء من اجل حياة افضل لانسان اقل خوفا واكثر كرامة واقوى عقلا وانقى ضميرا في المملكة الفاضلة السعيدة البعيدة ... والصاعدة في غيب نسغ شجرة المستقبل الامثل .

٣ ـ ومنها المستوى الحرفي فلسفيا ، المتمثل في جمهورية افلاطون ومدينة الفارابي الفاضلة وفي جميع النظريات الفلسفية المنطوية على تخطيط سياسي عبر حدود طاقة وامكانيات الحاضر في التطبيق .

٤ ـ ومنها المستوى الروحاني ، المتمثل في مملكة يسوع في السماء ومملكة المتصوفة في معارج القدس وفي جلال الحضرة الربانية .

٥ ـ ومنها المستوى العملي في الحياة اليومية ، المتمثل في العالم في مختبره ، والروائي خلف مكتبه ، والشاعر في تجربته ، والفلاح في الحقل والعامل في المنجم ... وعدد ما شئت من صنوف المنتجين باخلاص ، والذين يعطون أضعاف ما يأخذون ... انهم جميعا يساهمون في صنع تاج للمدينة الفاضلة البعيدة .

٦ ـ ولهذه الحضارة ـ حضارة الانسان الراهنة تاج ... وهي وبحكم حتمية التطور نحو الاحسن ـ وبالرغم من عيوبها الكثيرة ـ حضارة فاضلة اذا ما قيست على سبيل المقارنة بالحضارات السالفة ... لكن وراء هذا التاج تاج هذه الحضارة الرائعة ، انسان ابحر وعاد ـ رغم دوار البحر واشتداد العواصف ـ سندبادا جريئا وقال : حرك الجامد بقوة البخار يتحرك ، وكن سيدا على سيارات وقاطرات الارض ، وعلى طائرات السماء . ووضع تحت تصرف هذه الحضارة قانون حفظ الطاقة وقانون القصور الذاتي وقانون الجذب العام والنظرية النسبية ، وخلص الناس من ربقة افلاطون وارسطو في حقلي الرياضيات والعلم الطبيعي ... وسرد على اذهان الناس قصة التطور العضوي والنشوء والارتقاء واصل الحياة ـ وتمثل هذا الانسان في واط وغاليلو ونيوتن وانيشتاين وداروين ـ قد ساهم كل من هؤلاء في صنع تاج هذه الحضارة ـ هذه المدينة الفاضلة التي حلم كل منهم بها طويلا لكنها كانت حينذاك بعيدة بعيدة... وهذا هو المستوى التاريخي لقول الخيام في سيرته الذاتية :

« بثمن الخبز ، اشتريت زنبقا .
بثمن الدواء
صنعت تاجا منه للمدينة الفاضلة البعيده
لامنا الارض التي تولد كل لحظة جديده »

وتوسع في مدلول هذا المستوى التاريخي من المعنى ان شئت ، واصرفه ـ ان راق لك ـ ينصرف الى اي من الذين ساهموا جوهريا في توطيد مفاهيم هذه الحضارة الرائعة : سقراط ، افلاطون ،ارسطو، ابيقور ، بيكون ، هوبز ، ديكارت ، لوك ، هيجل ، ماركس ، وليم جيمس ، دانتي ، شكسبير ، جوتيه ، سرفانتس ، تولستوي،بتهوفن، فاكنر ، مايكل انجيلو ... وعدد ما شئت وما راق لك وطول قائمة الاسماء ما استطعت ، لكن لا تدخل في القائمة اسم تاجر أو اقطاعي او خليفة أو ملك او سلطان او وزير او شبه ملك او شبه وزير ... لا ... ولا توما الاكويني مثلا : رجاء لا ... ولا نابليون ولا نيرون ولا قيصر ... وادخل الخيام في القائمة ـ فقد رفع البياتي قدره ـ واكتب في القائمة اسم البياتي وباعجاب وفي موكب المبدعين من الشعراء ...

ارأيت الان ؟ هذا هو الادب المتكامل ... ادب تخرجه من المحلية الضئيلة الى آفاق العالمية ، عبر حدود الزمان والمكان واللغة والدين والمعتقد ، صفة تعدد الظلال المتمثلة في تعدد دلالات مستوى المعنى للنص . اذا فليست القضية قضية عروض وبلاغة ونحو وصرف ... لا !! انها قضية حياة وادب وفكر ، وقضية النسغ الصاعد في شجرة المستقبل الطاهرة الطيبة ... اجل : « وتغير بعد هذا كل شيء ـ صارت اللعبة اخطر » .

ان تمويع قضية الشعر العربي المعاصر في مناقشة التزامه او عدم التزامه القافية الواحدة ، ومناقشة توحيد التفعيلة في القصيدة او تنويعها ومدها وتجاوز القصيدة اكثر من بحر ، مناقشة طفيفة ولا تعطي قدر قشة في التقييم الفكري وفي تحديد موقف لانسان معاصر في حضارة تتصف بالروعة والفخامة وجلال القدر ...

والشعر اداء فني متكامل موزون ، والتزام الوزن ضرورة وتفعيلات الشعر السائدة رائعة رائعة ، وان العبارة الشعرية ـ كالعبارة الموسيقية ـ تأتي في ذهن الشاعر الاصيل موزونة وفي قالب تفعيلة ، واللحن او النغم اسبق في الوجود من النوتة المكتوبة ، ومفاتيح البيانو اسبق في الوجود من مفاتيح البيانو الخشبي ـ انه صنع وفق نمط المفاتيح السابقة في الوجود ... هذه ـ واقرر هذا بثقة فيها عناد ـ كل قضية الشعر العربي المعاصر والتفعيلة ... رغم كل ما قد يثير بعض الناس من زوابع في فنجان فارغ . والقضية ـ اعيد ـ وبتكرار حتما غير ممل ـ قضية حياة وادب وفكر ، وقضية النسغ الصاعد في شجرة المستقبل الافضل ، وقضية انسان مفكر عليه ان يحدد موقفه من نفسه ومن الافكار في ذهنه ، ومن الناس من حوله ، ومن الذين سبقوه في التاريخ ، ومن الافكار والتصورات والاوهام في اذهانهم ، ومن الاشياء من حوله ... وانها قضية انسان معاصر في حضارة تتصف بالروعة والفخامة وجلال القدر ... حضارة لم يعد فيها الشعر نظما وكلاما موزونا مقفى وابوابه وكل موضوعاته الفخر والهجاء والنسيب والرثاء والمديح ، ولم تعد عظمة الشاعر قائمة على وقوف واستيقاف ، وبكاء واستبكاء ، ونعي الحبيبة والديار في نصف بيت واحد اذ ما عادت الدنيا قائمة على قرن ثور ... لا ، انها تدور رغم ان في هذه الحقيقة شكا بين اكثر من نصف المعاصرين العرب مقدرا أن نسبة الامية تبلغ حد نصف السكان على اقل تقدير !

وبين حد الامية وحد الثقافة ظلال كثيرة متدرجة في المتعلمين

حتى لا يبلغ منهم وفق هذا التدرج حد الثقافة الا نسبة ضئيلة ...

ان هذا يعني ـ فيما يعني ـ ان قراء الشعر المعاصر ومتذوقيه نسبة ضئيلة من القراء العرب بل ومن قراء الشعر ، وهذا ما يحرج موقف شاعر فذ كالبياتي اذ لا يجد مناصا من التبسط والتبسيط من اجل توسيع دائرة قراء شعره على حساب كمال عمله ، كما لا يجد بدا من استعجال افراح النشر ... والا فمن يطيق تحمل الحياة تقشفا على ما تعود عليه بضعة الاف من كتاب ضئيل الثمن فيصبر حتى ينجز عملا اخر بمستوى رفيع يرضيه ويرضى عنه ؟

اليس حينئذ « الذي يأتي ولا يأتي » و « سفر الفقر والثورة » بدليلي عظمة شاعر كبير وسط هذه الصعوبات القاهرة ... وسط اقلية ضئيلة من القراء ، ووسط عيون الرقابة والرقباء ... ووسط اناشيد العنتريات الفارغة والخطب الهوج ومقالات الملق والغباء والنفاق والاستجداء وقرع الطبول ؟

وفي القضية جانب مأساة الغواص والفحام ، ومأساة شاعر يغوص ويغوص حتى اقصى قاع البحر ... ثم وبعد العذاب يرفض الفحام الدر حتى ولو بالمجان .

وفي القضية بطولة شاعر يحفر بالاصابع المجردة نفقا بين بابل ونيسابور ويسافر وحيدا وسط الليل وضجة الخوف وتحت سماء ما فيها نجوم ... فالدرب ظلام وبرد ونفق طويل ... ويصل البياتي نيسابور ويستنطق الخيام حكاية المولد وبداية الطفولة في جحيم نيسابور ، ويسرد الخيام القصة بتفصيل مذهل :

« ولدت في جحيم نيسابور
نمت على الارصفة الغبراء
اصطدت الفراشات ، وقعت في شراك النور
وسحب الخريف والغابات والدهور
كلمت نجمة الصباح ، قلت يا صديقه
اتزهر الحديقه ؟
وتولد الحقيقه ؟
من هذه الاكذوبة البلقاء
فراشة عمياء »

وهذا رائع مذهل ... اليس كذلك ؟ ... ليس من آيات الابهة ورقي الامجاد ان يبات مشرد الليل على الارصفة ويحلم في اصطياد الفراشات حتى اذا ما اشرقت الشمس خرج يصطاد ووقع في شراك النور في سحب الخريف والغابات والزهور ؟

صورة رائعة ، وطبيعية في حدود المألوف تجربة وحسا ، فأنت حين تهم في اصطياد فراشات في غابة تلاحق حتما الفراشات في النور ومن زهرة الى زهرة وفي بحر من نور وزهور ولك في الغيب ـ والقضية قضية حظ ـ والدنيا حظوظ ـ سحب خريف ...

و « الفراشات » البياتية الخيامية تعني « المثل » في لغة افلاطونية ، « والمطلق » في لغة هيجلية ، و « الحق » في لهجة صوفية ، و « نور الانوار » في لغة اشراقية ، و « الحقيقة والعدل والجمال والصواب » وكل ما هو رائع ويتطلع اليه الانسان الحاث السير نحو المستقبل السعيد في افكار ولغة الانسان المعاصر ...

وبعد ان وقع الخيام في الشراك : النور يقمر عينه ، وسحب الخريف تعيقه ، والزهور تنافسه ، رجع من الصيد بلا فراشة. وضج البياتي كما يضج اي انسان في اي ارض وفي جميع الازمنة وعبر العصور :

« أتزهر الحديقه ؟ وتولد الحقيقه ؟ أتولد الحقيقه ، من هذه الاكذوبة البلقاء ، طفولتي الشقية الحمقاء ... فراشة عمياء » .

وكل هذا اداء رائع في التطلع الى شباب سعيد وكهولة متمكنة وشيخوخة حكيمة مطمئنة وقورة .

« كلمت نجمة الصباح ، قلت يا صديقه
انزهر الحديقه ـ وتولد الحقيقه »

ويأتي الجواب بدقة وتفصيل مذهلين :

« البشر الفانون في مدينة الحديد والاحجار
تسلقوا الاسوار
ونصبوا الشراك »

وهذا اداء سهل ميسور الفهم ، وبسيط بساطة « نصب الهوى شركا علي فصادني ... » مع فارق بسيط وهو ان البياتي ـ او قل ان شئت الخيام ـ يريد خروجا من المدينة الجاهلة ... او من الكهف ـ ان شئت لغة فلسفية افلاطونية ومستوى شاملا ... لكن البشر تسلقوا اسوار المدينة المغلقة ونصبوا الشراك وبقي الخيام محبوسا ، وكلما هم بخلاص من مدينة الظلمة وتطلع الى مدائن النور صده الحراس الذين نصبوا الشراك خلف أسوار المدينة متربصين لكل من قد تحدثه همته بفرار من الكهف وبالتحاق بدنيا الاشراق والنور ...

لكن ... وفي غمرة اليأس ووسط طغيان امواج القنوط :

« قالت ، ومدت يدها : اهواك
وابتسم الملاك
وغاب في الجدار ... »

ثم وفي ارتعاشة نشوة الامل الكبرى والرجاء الاعظم ، جاء صدى او جانب من حوار ، او شيء هو بين بين : من غيب أو من عالم شهادة ... او من تكهن ، او من اخبار عن واقع ، سواء ولا فرق . اذ ان الذين ابحروا بحثا عن مدينة فاضلة قد عادوا وعلى مراكبهم انقاض مدائن مرذولة :

« يا عندليب العاشق الاعمى ، ويا خزائن الاسرار
ابحرت السفينه
تبحث في الاصقاع عن مدينه
لم يقف الشحاذ في ابوابها يوما ولم يسند
على رصيفها جبينه
لكنما السفينه
عادت مع المساء للمدينه

ـ التتمة على الصفحة ٣٨

في الاسواق

قصة الحرب القذرة ...

في فيتنام !

اقراها في رواية الروائي الاسترالي الشهير

موريست وست

السفير

كما يقصها سفير اميركي عين في سايغون ، فعاش مؤامرات المخابرات السرية الاميركية مع عدد من الجنرالات المتآمرين ، وخرج بمأساة شخصية تجسدت في صراع بين الاخلاق والانتهازية السياسية ...

ترجمها : نزيه الحكيم

منشورات دار الآداب

البياتي والخيام وحافة الاقدار

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٢٧ ـ

تحمل فوق ظهرها الشحاذ
مقوس الظهر بلا عيون
الجثث المبقورة البطون
تسد هذا الشارع الملعون
متى ؟ متى ايتها الشمطاء ؟
ستمطر السماء
وتولد الحقيقه
من هذه النفاية الغريقة ! »

وصفة المدينة الفاضلة انها مدينة : لم يقف الشحاذ في ابوابها يوما ولم يسند على رصيفها جبينه ... مدينة مثلى ـ لا اسبارطية : تدوخ الخلق بعسكر وتعلن حربا سنوية شرعية على السكان ... ولا عباسية يتحدى خليفتها السحب وغذاء الشعب فيها خبز شعير ... اجل كل شيء قد تغير ... « صارت اللعبة اخطر » .

غير ان السفينة التي ابحرت بحثا عن مدينة سعيدة في جزيرة فاضلة ، عادت وعلى ظهرها شحاذ مقوس الظهر بلا عيون ـ يا لخيبة البحارة ـ .

وسدت الشارع الجثث المنفوخة البطون ... والجثث المنفوخة البطون رمز بياتي يوقفه غالبا ـ على المنتفعين وعلى آلات الطفاة ... آلات الاضطهاد والتخريب والارهاب والسلب والنهب والاشقاء والاذلال .. آلات بشرية : تضطهد وتخوف وترهب وتنهب وتسلب وتشقي الناس وتذل البشر وتهين كرامة ذرية ادم ... انها الجثث التي يتعهدها الفاتحون بالايواء وبالاكساء وبالعلف .. والجثث التي يتعهدها الطفاة بالعطايا درهما ودينارا وبالامتيازات القابا مطهمة ومناصب مفخمة وبالايواء والعلف والكساء ... اجل انها جثث جنكيزخان وهولاكو ونابوليون ومراد الرابع وجثث كل سفاح سافك للدم قائد فاتح فخم الالقاب كثير النياشين ... وجثث قيصر ونيرون ... والف قيصر والف الف نيرون مجهري طفيف من الذين كتبت حظوظهم في ابراج السماء ان يتبخترو في الارض عنجهية وان يذلوا الرقاب ويسفكوا الدماء ..

ويلوح للخيام ان نيسابور قد هرمت وشاخت وان بابل ـ في لهجة بياتية ـ قد يبست وامتصت ماءها الاحداث واستنزفت شبابها السنون ..

وهكذا ، وبعد اليأس من انشاء مدينة فاضلة على نمط مثال مدينة يأتي به البحارة من بعيد ، عول البياتي وعول الخيام على مطر السماء ، وعلى سحابة تغسل ادران هذي الارض في بابل وفي نيسابور وانى شئت ... عل حقيقة تولد من نفاية غريقة واقرأ استفهاما جزوعا يطلب الجواب من التي شاخت وهرمت (المدينة القديمة) :

« متى ؟ متى أيتها الشمطاء ؟
ستمطر السماء
وتولد الحقيقة
من هذه النفاية الغريقة »

فمتى تولد المدينة الفاضلة البعيدة والتي صنع لها الخيام تاجا بثمن الخبز وبثمن الدواء ؟؟ متى تمطر السحابة داخل السور وتطهر بابل من الادران ، فقد عاد البحارة وعلى ظهر السفينة شحاذ أعمى مقوس الظهر بلا عيون ... وبيع افلاطون عبدا .. وعاد قلقامش بحكاية باردة كتلك التي عاد بها حي بن يقظان .. وعاد السندباد مقرورا من البرد ، وعباءة السندباد وصلة من شراع خلقت من كثرة الابحار وطول مدة الطواف بحثا عن المدينة البعيدة السعيدة .. فمن يدلي فراشة عمياء على زهرة ؟ ومن يداوي ذئبا جريحا ؟ ومن يدلي السندباد على فراشة ؟ ومن للعاشقات في بابل وقد اشتد الحراس عيونا على السور ؟ ومن للغانيات في نهاوند وفي نيسابور ، ومن لهن في صيدا وطيبة وصور ؟ ومن لهن فحالهن حال !

« قالت ، ومدت يدها : أهواك
وابتسم الملاك ـ
يا عندليب العاشق الاعمى ، ويا خزائن الاسرار
لم يقف الشحاذ في أبوابها يوما ولم يسند
أبحرت السفينه
تبحث في الاصقاع عن مدينه
على رصيفها جبينه
لكنما السفينه
عادت مع المساء للمدينه
فارغة حزينه »

ودعنا ـ وبشيء من تجوز ـ نقول انها قالت ما قالت عشتروت لنيسان : أن فجر الربيع يا نيسان في بابل ، وامطر يا نيسان سماء بابل على أرض بابل ، واملأ أنهار المدينة وليملا كل نهر مجراه ... اجل هذا ما تقوله عشتروت لنيسان قبل البعث وبعد اليأس من عودة السفينة بنمط مدينة خصيبة من بحار ما بعد السور ... وبعد الجفاف المميت .

وان لم يرق لك هذا المستوى الرائع من دلالات المعنى فدعنا نقول انها قالت ما قال الجمال الذي ما رأى البحر قط للسندباد : كف أساطيرك عن البحار يا سندباد وحدثنا عن شقاء هذي الارض وعن بؤس المدينة داخل السور وفي ظلمات هذا الليل الذي تمطى وتفحمت نجومه ، وهات الحديث عن بغداد .

أم يروق لك أن تحمل دلالة المعنى على ما قالت الاقدار لقلقامش: ان لا خلود لفان خلف هذا السور ، انما الخلود بذكر حسن للمرء بعد أن يموت واقفا وعيناه في السماء تطلعا الى الحق داخل السور .

أم ترى صرف دلالة المعنى الى حي بن يقظان وقد عاد بصيرا من بلاد النور فانكره عميان المدينة وسدوا آذانهم عن سماع حديثهذا الطارىء من سموات فيها شمس وفيها قمر وفيها نجوم ... ولك طبعا أن تعتمد على الموهبة ... موهبتك أنت ... وأن تصرف دلالة المعنى الى أحوال تاريخية واقعية وأن توسع في هذه الدلالة ما أسعفتك الموهبة وما أسعفتك الثقافة ... وعول على عوالمك أنت في قراءة الشعر المعاصر ، فالعبارة الشعرية مرآة ، ومرآة الشاعر حتما ومرآتك أنت ، ولا تطمع برؤية الشاعر في العبارة الا بقدر ما تطمع في ملامح من صانع مرآة حين تواجه المرآة أنت بوجهك ...

فالعبارة الشعرية المعاصرة مرآة ترى فيها عواطفك .. وانها مرآة بلا حدود وانها لا تتناهى الا حيث تتناهى أنت موهبة وملكات وثقافة .

أجل تبدلت الدنيا وتطور كل شيء وتغير في قبة هذه الحضارة الرائعة وصارت اللعبة أخطر ، وحان وقت نفض غبار نظريات الاغريق والرومان من على جبين النقد المعاصر ، اذ لم يعد الشعر الهاما للامتاع ـ على رأي هوميروس ـ أو لاستدعاء صوت الآلهة وآداب السماء الى الارض ـ على رأي « هيسيودوس » ـ ولم تعد ثمة قيمة لمناقشة رسالة الشعر بين الامتاع والتسرية عن النفس من جهة ونقل التعليمات ومبادىء الخلق القويم من جهة أخرى . القضية التي أشبعها النقاد الاغريق والرومان بحثا جوع الحقيقة والتي هي ـ على ما أرى ـ ان العبارة الشعرية مرآة لا متناهية يرى فيها القارىء كل ما قد كمن في نفسه بالقوة ، فتساعده المرآة ـ كمرجح ـ على ظهور ما كمن في النفس الى وجود فعلي ، يحتوي على كل ما تثيره العبارة الشعرية المعاصرة من حقيقة وخيال وظلال بين بين .

ويلوح لي ان البياتي قد أراد أن يسوي من مادة « الذي يأتي ولا يأتي » مسرحية تحكي سيرة الخيام الذاتية ، غير ان مشروع المسرحية

قد ماع وتلاشى في شكل ملحمة وجيزة .. وطبعا هذا محض تخمين . وأرى ان طغيان ذات الخيام على فترته التاريخية ، وطغيان ذات وقضية البياتي على ذات وقضية الخيام ، ساعد كثيرا على انسياب البياتي في أداء شعري ملحمي تلاشت في انسيابه معالم الشكل المسرحي بشخوصه وبصوره الحركية وبحركته الانفعالية ...

لكن « الذي يأتي ولا يأتي » أعظم وأكثر خصبا من المسرحية التي كان بامكانها أن تكون لولا وقوف ما ذكرنا من عوامل غيرت مجرى النص ومستوى الاداء ، وموعت امكانية المسرحية في نص أدبي رائع متكامل والبقية على الغير : على مؤلف موسيقى يستلهم ، وعلى كاتب حوار يستوحي ، وعلى رسام يترجم الحروف الى ألوان وخطوط كما فعل مثلا أحمد مرسي ببعض فقرات « سد الفقر والثورة » وكما فعل آدم حنين ببعض فقرات « الذي يأتي ولا يأتي » ، وعلى مسرح متمكن موهوب يستوعب ويتمثل ويخرج ، بل وحتى على شاعر وروائي يستثمر النص ويطور ويستأنف المسيرة ... مسيرة سير الاعماق ، ومسيرة توسيع الآفاق ، في موكب أدب متكامل في حياة متكاملة ، وفي موكب عالم الادب الواحد ، والفلسفة الواحدة ، في عالم فكر تلاشت فيه الحدود ، وشفت السدود ، وانعدمت المسافات ...

وينتقل الخيام من حديث المولد والطفولة الى حديث عن الليل فوق نيسابور :

« كل الغزاة ، من هنا مروا بنيسابور
العربات الفارغة
وسارقو الاطفال والقبور
وبائعو خواتم النحاس
وقارعو الاجراس
كل الغزاة بصقوا في وجهها المجدور
وضاجعوها ، وهي في المخاض
حياتنا فيها ، وفي داخل هذا النفق المسدود
رواية مملة مثلها أحمق أو مجنون ... »

اشارة صريحة الى الاسكندر وهولاكو وجنكيزخان ... والى الغجر والتتار والمغول ، والى الغزو الاوروبي الحديث ... اليس كذلك ؟؟ أم بنا حاجة الى شرح وتفصيل ؟؟

اذن ، وفي حدود المعنى الحرفي التاريخي الذي تتضمنه هذه الصورة ، فالخيام يعيد أمام ناظريك صورة عربات فاتحين تعاقبوا على نيسابور ... انها عربات الاسكندر وهولاكو وجنكيزخان ... فجميعهم مروا بنيسابور .. بفارس .. ببابل وبكل مدينة على خط مسيرة العربات ...

وتوسع ان شئت ، وتشبث بدلالة الرمز بعيدا عن المستوى التاريخي للمعنى ، واصرف العربات الفارغة الى الاسكندر وهولاكو وجنكيزخان ، بما هم أنماط ... أنماط فاتحين وأنماط غزاة ، مثلما نابليون وهتلر ومراد الرابع أنماط غزاة ، يمثلون الغزاة نوعا ...

وتوسع في مدلول نيسابور ، وجاوز بها حدود فارس ، وحدود آسيا ، واصرفها الى مدينة نمطا للدلالة على البلد المستباح غزوا ...

وجرد أخيرا المعنى من دلالاته الحسية واستظهر : « كل الغزاة من هنا ، مروا بنيسابور » ، تجد انها عبارة تمتد حتى آخر الدنيا ظلالا للتعبير عن حالات لا نهاية لتعاقبها على الانسان في نفسه وفي الناس والاحوال ، والقرى والمدائن والاقطار والعوالم من حوله ... أجل ! « كل الغزاة ، من هنا ، مروا بنيسابور » مروا بوهران وطهران وفي بغداد وفي بيروت ... ومروا بكل مدينة .

ويضع البياتي أمام ناظريك صورة الغزو الاوروبي الحديث ، مستعيرا للغزاة أسماء من طقوس الكنيسة ، ومن قرع النواقيس بالذات : « وقارعو الاجراس » وهي تسمية ملائمة .

والحياة في نيسابور « رواية مملة مثلها أحمق أو مجنون » ... محض رواية تنيم المشاهد من شدة السأم والضجر والشعور باللاجدوى ... فالحياة في نيسابور ، وبعد أن بصق كل الغزاة في وجهها المجدور ، محض حياة في نفق مسدود ...

أليست الحياة اذن برواية مملة أن عاشها الانسان في نفق مسدود يتصف بالانغلاق والظلمة والرتابة واللاتجدد ؟

واتخذ ـ ان راق لك ـ بيروت أو باريس أو دمشق أو صور أو صيدا أو الشام أو بغداد أو أثينا أو نهاوند أو طيبة ... أو أي بلد ، وكما يتلاءم مع الزمن والحدث والمزاج ، مزاجك أنت ، بديلا عن نيسابور ...

أما ان شئت غضبة كبرى فاتخذ الدنيا بديلا ... وان كنت من بيروت فاقرأ : « كل الغزاة ، من هنا ، مروا على بيروت » ... واقرأ مع هذا شعر خليل حاوي :

« نحن في بيروت مأساة خلقنا
بوجوه وعقول مستعاره
تولد الفكرة في السوق بغيا
ثم تقضي العمر في لفق البكاره ... »

أو قل ان أنت من باريس : « نحن في باريس مأساة خلقنا ... » ويستقيم لك من العبارة الشعرية دواء يشفيك وتتداوى بأصدائه اذ ترجع أعماق أعماقك الاصداء وتمتد أمامك العبارة مرآة بلا نهاية ، وترى فيها بقدر ما فيك من اهتمامات وهموم ، وبقدر احاطتك علما بنفسك وبالناس والاحوال من حولك ، وبالدنيا تاريخا من قبلك ...

أما ان كنت مثلا من أصحاب وباء أدب الرفض أو من أتباع أدب المعاناة والانسحاق والقلق والقيء والغثيان والدوخة والضياع ، فستدرك سبب هذا الوباء وهذه الاوجاع ... وهو ببساطة لانك جبلي ذكي بريء النفس ونزلت بيروت وقرأت شيئا في الجامعة الاميركية والتحقت بصفوف المثقفين ، لكن ماذا ؟

« كل الغزاة ، من هنا ، مروا على بيروت »

« كل الغزاة بصقوا في وجهها المجدور » ومنهم أصحاب النفط ، وأصحاب العقارات ، وأصحاب البنوك ، والمقاولون ، وكبار التجار ...

ثم يا مفكر « الرفض » تقرأ وتسمع وربما تبصر ـ ان كنت مخبرا في جريدة ـ وتقرأ وتسمع ما يهين فيك الموهبة والذكاء ، وكرامة الثقافة ، وسعة الاطلاع وقوة الفكر !

تقرأ وتسمع عن ألف بليد أمي مجدور الوجه ، سمج الطباع ، تسد سيارته الشارع ويحمل السيارة ... ثم يفرغ حمولة السيارة ويشحنها بأخريات ...

وأنت أنت منشغل بقصيدة عن الغثيان والدوخة والضياع ... وترفض ، أيها المثقف الرافض ... يا أيها البريء المغفل : ـ كل الغزاة من هنا مروا بنيسابور ... مروا على بيروت ...

وتقرأ ، يا فيلسوف الدوخة وأديب الرفض وشاعر الغثيان واللاجدوى والازمات والقيء والصداع ... تقرأ عن (الفتح) : فتح عشرات الويسكي ... وتقرأ وتسمع عن « الصب » : صب الشمبانيا على أقدام شقراوات وسمراوات وعلى أقدام حوريات جيء بهن استيرادا من خلف البحار ومن وراء المحيطات ...

وتقرأ وتقرأ ... وتسمع وتسمع ، ثم تتأزم يا أيها البطل ! وترفض لانك قلق ! ولانك تعي مشكلة العصر وأزمة الانسان وتلتزم قضية الدهور غثيانا ودوخة وقيئا . وطوباك طوباك في الرفض وبوركت في الغثيان والدوخة والقلق ، فانت مخلوق ظريف ... ذكي مغفل بريء وتجيد تدويخ نفسك ! فانت قلق يا أيها المفكر العظيم ، وأنت مفكر خطير ترفض أن تسمع البياتي ، وتسد أذنيك عن صوت الخيام والانسان .

« كل الغزاة من هنا مروا بنيسابور » !
مروا على بغداد ... في باريس ... في بيروت !
والرفض كالقلق ... كالغثيان ... كالدوخة ... كالضياع ...

وباء تسرب الى كتاب في بغداد وفي دمشق من بيروت اذن :

« فلتغسل السحابه

أدران هذي الارض
هذي الغابه ...
ولينهض الموتى من القبور ...
كل الغزاة ، من هنا ، مروا بنيسابور
كل الغزاة بصقوا في وجهها المجدور »

ولنتابع البياتي يحكي لنا بعض جوانب القضية ، بوضوح ويسر ، وبرباطة جأش ذكيـــة هادئة مستقرة ، بعيـدا عن ميوعة الرفض ، وعنتريات منسحقين يدللون أنفسهم بالدوخـة وبالقلق وبالضياع ، مثلما يدلل طفل مهمـــل نفسه بادعاء ألف وجع ووجع ليحصل على انتباه الكبار .

ومعجزة الانسان ، يقول البياتي ، « أن يمـــوت واقفا » ... لا أن ينسحق ، ولا أن يتعنتر ادعاء ... ولا أن يدعي الدوخة دلالا ..

وتأتيك أصداء الليل فوق نيسابور ... ونيسابور محض أنقاض بعد أن مرت عليها عربات وغزاة وخيول :

« أيتها الانقاض »
دقت طبول الموت في الساحات
وأعدم الاسرى وهم أموات »

والبقية الباقية من المدينة المندثرة ثرثرة فارغة ... ربما عنتريات تبتني لبلقيس صرحا من مفردات القاموس فوق بساط تطيره في الريح خطبة متعنترة هائجة ... وهذه ثرثرة لا شك مهلكة ... ويتصـــور البياتي لسان المدينة الهائجة آلة لقطع خشب تابوت ! أجل يتصورها سببا للموت ... وللاندثار ولسوء العيش ...

وان الثرثرة تلتف حول المدينة المتعنترة مثلما يلتف بيت عنكبوت على ذبابة :

« لسانها الثرثار
يقطع فيه خشب التابوت
خيوط عنكبوت
تلتف حول هذه الذبابه »

ويرجع البياتي الى السماء ... الى الغيب والى الغيث فـــي المستقبل ... ويستمطر السحاب لتغسل أمواه السحابة عار القذارة في دروب المدينة ، وعار العبارة الفارغة ، والجملة الهائجة ، والفكرة السفيهـة :

« أيتها السحابه !!
لتغسلي ذوائب المدينة الثرثاره
وهذه القذاره ... »

وتستجيب السماء ، وتمطر السحابة ، ويرقص على الشفـــق قوس قزح ألوان الحياة الصاعدة ، ويولد الانسان جديدا ، من زبـد البحر ومن قرارة الامواج ومن وجع الارض ومن تكسر الزجاج ، ويسود الانسان الجديد ، فقد تلاشت ثرثرة المدينة المجدورة الوجه ، وانسحب آخر فوج من أهلها ومروا مرور الجرذان على سجاد ... فأومضـــت نار من خلل الرماد :

« كل الغزاة من هنا ، مروا بنيسابور
على ظهور الصافنات وعلى أجنحة الطيور
البشر الفانون
يحطمون بيضة النسر ، ويولدون
من زبد البحر ومن قرارة الامواج
من وجع الارض ومن تكسر الزجاج
أقدام جرذان على السجاد
مرت ، ونارا ومضت من خلل الرماد »

ويأتيك صدى الحقيقـــة ، من اللانهاية ، وعند انتهاء الليل ، وقبيل الفجر في نيسابور :

« لنقرأ الكتاب بالمقلوب
منقبين في حواشيه عن المكتوب والمحجوب
كان علينا أن نضيء النور
في ليل نيسابور »

واصرف ـ ان شئت وراق لك ـ نيسابور الى ما شئت مـــن مدائن الارض : من بابل وبغداد وأشور الى طيبة وصيدا وصور ، والى لندن وباريس وقرية نائية على الدانوب ... والى كل مدينة من مدائن الارض ومدائن النفس ، والنفس عالم يمتد ويحتوي العوالم مدينـــة مدينة حتى اللانهاية وقرية فقرية .

واصرف النور ـ ان راق لك ـ ينصرف الى الفكرة الصائبـــة والهمسة الدافئة ، وكيف يضيء الخيام الليل في نيسابور وقد اختفى القمر في ثلاث ، ظلمات عماه وظلمة بطن الحـوت وظلمات البحر ... ثلاث ظلمات وظلمة الليل وظلمـــة غربة الخيام وظلمة انطفاء نـار المجوس ؟ ـ ست ظلمات طبقا !! فهل من ست لمحات من نور ؟ ومـن يدلي الخيام على فراشة في ظلام أخضر ، ومن يدلي فراشة الليـــل على شمعة الليل الاخضر المسحور ؟

« القمر الاعمى ببطن الحوت ـ وأنت في الغربة لا تحيـــا ولا تموت ـ نار المجوس انطفـــأت ـ فاوقد الفانوس ـ وابحث عـن الفراشة ـ لعلها تطير في هذا الظلام الاخضر المسحور ـ واشرب ظلام النور ـ وحطم الزجاجة ـ فهذه الليلة لا تعود ... »

فليتخذ الخيام ، اذن ، نورا لنفسه من وحي عقله ومن صنـــع يديه .. وليعول على قدراته ان خانتـه طبائع الاشيـــاء والموجودات ، وليبحث في ضوء هذا الفانوس عن فراشة في حلكة ليل نيسابور بعد موات النور وانطفاء نار المجوس .. وليبحث عن هذه الفراشة في ليل نيسابور المسعور ، مهتديا بنور العقل ، وبدفء همسات الشعر ، في حدود قدرات الانسان الطبيعية والمنطقية ، مستغنيا عن نـــار المجوس ، وعن قوة ورثتها النار من غيب غيوب عالم ما رأته عين قط .

واشرب ظلام النور فهو كل البقية الباقيـــة من نور تلاشى ... او قل ان شئت مستوى آخر من المعنى : اشرب ظلام هذا النور رشفة بعد رشفة تبدد ظلمة وتستدعي نورا مع كل رشفة ... واشرب واشرب من ظلام هذا النور وبدد الديجور واعصر الليل وجففه وجففه مـن آخر قطرة ظلمة وانشره على شرفة الفجر ، فالفجر في الدروب ، ويستوي في ذمة الانسان القاهر الكفار والمغلوب ، وحطم الكأس التي شربت فيها من ظلام النور ... فهذه الامسية الجرداء والليلة الليلاء فريدة مـن نوعها وحيدة في بابها ولن تعود ... فاشرب ظلام الليل يا خيـام ، واشرب ظلام النور يا انسان ، وحطم الكأس التي شربت فيها أزمـــة الانسان وظلمة الازمان وحصة التاريخ من ظلم ومن ديجور ! وحصـة الانسان والتاريخ والايام من بحر هذا الظلم يا خيام .

فاشرب هنيئا حطم الكاسات، فهذه الظلمة في ليلتك الليلاء لا تعود.. أجل محض خمريات !! لكنها خمريات انســـان معاصر في قبة هـــذه الحضارة المجيدة ، وانها خمريات ... تعتيق الايام بظلمة الديجور .. ويشرب الظلمة انسان وينبلج بعد الليلة الليلاء نور وتظل الشمس طفلة حبيبة من وراء شفيف قميص ليلة جف وجف حتى راق وشف وانبلج

منشورات دار الاداب
تطلب في
الـدار البيضاء (المغرب)
مـن
مكتبة دار العلم
للنشر والتوزيع
٤٠ شارع الملكي ـ الاحباس
تلفون ٦٢٣٠٩

النور وزالت العتمة والاوضار وانتحر الخفاش في بحر هذا النور .. قد شرب الانسان في ليلة ليلاء ظلام هذا النور وانسحب الديجور .. وانتحر السياف والسلطان ، وانتحر الدجال والسكير بالمجان ، وهللت عشتار يا أنت يا نيسان ، يا انسان شربت في الليل ظلام النور ، شربت قحط أرضنا الغبراء في ليلة ليلاء ... فحطم الكأس التي شربت فيها أزمة الانسان ... وارتجف الشباك قالت ومدت يدها أهواك ..

أجل محض خمريات انسان معاصر في قبة حضارة مجيدة تعتمد الانسان أولا وتعتمد الانسان غاية وتعتمد برود العقل وهدوء التجريب وكرامة الفكر سورا للانسان وسورا للوطن ... حضارة تعتمد التطوير من الداخل ... من داخل هذا الانسان ومن تطوير ضميره وعقله وذوقه بالاحساس النبيل وبالفكرة الصائبة وباللمسة الفنية الرائعة .

أجل محض خمريات ! وخمريات هادئة هامسة ما فيها هيجان ولا فيها تعنتر .

وخمريات ناعمة لا تدك الجبال لنيل الحق بالعزة القعساء والعدد الذي عليه اذا عد الحصى يتخلف ... وناعمة لا تتعنجه متعنترة مذلة رقاب الناس بأن يسجدوا كلما ولد للاكرمين طفل على درب السلطنة الهوجاء ، وأن يطيل الجبابرة السجود ألف عام كلما بلغ صبي الفطام :

اذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

وربك يدري ما على الناس أن يفعلوا حين يبلغ هذا الصبي الحلم، فالرشد ، حتما قد يقف بين يديه من يقول :

« ما كان الا أن جعلتك مقصدي حتى هوت غرر النجوم على يدي »

فتصفق بغداد قائمة لا الى جلوس فرحا بهذا الذي بلغ الحلم ، واستبشارا بشاعرية مداح جديد ما جاد الزمن بمثله منذ ألف عام ويزيد !

وانها خمريات العصر ... خمريات انسان معاصر في قبة حضارة رائعة كتبت فيها النجوم في الابراج شقاء على كل متعنتر الى أن يهدأ، وعلى كل هائج الى أن يسكن ، وعلى كل قديم الى أن يعاصر ، وعلى كل جاهل الى أن يعرف .

وخمريات انسانية في قبة حضارة متطورة وسور الوطن فيها كرامة المواطن واحترام الحياة وتوفير معيشة أحسن لانسان أقل خوفا وأكثر كرامة وبما هو انسان بصرف النظر عن أي اعتبار آخر .

أجل ... تطورت الدنيا وتبدل فيها كل شيء والمجد اليوم ومن اليوم والى الابد حتى آخر الدنيا لبرود العقل ، وهدوء التجريب ، وكرامة الفكر ، وبهذا تقوم أمجاد هذه الحضارة ، على فلسفة وعلم وكرامة أدب وفن يأخذ بمعطيات الفلسفة بقدر ما تأخذ الفلسفة بمعطيات العلم ... وهذا لا يتم ـ أعيد ثانية ـ الا عن طريق تطوير الانسان من الداخل ومن خلال تطوير الضمير والعقل والذوق : بالاحساس النبيل ، وبالفكرة الصائبة ، وباللمسة الفنية الرائعة ... بخمريات انسان معاصر وبعذاب حلاج وبمحنة معري وبحيرة خيام وبشاعر فذ مثل البياتي وبقارىء مثلك ان كنت من المحظوظين ..

لقد مر زمن كان فيه الشاعر يستنفر العشيرة بقصيدة تطيش من هولها الرؤوس وتغلي من حرارتها الدماء في العروق ، ويهيج أفراد القبيلة طلبا للكلأ أو الارض أو الماء أو الغنائم ، والا قل لي ـ لماذا اذن يهيجون ؟ وكانت للشاعر وظيفة ضرورية ، اذ انه كان يقوم بعمليات التهييج استنفارا للقتال ، والفخر ابتهاجا بتطورات النصر ، وبالمدح مشيرا الى بطولات الشجعان ، وبالهجاء ناشرا كل مثالب الدنيا على القبيلة المعادية في جميع مراحل عملياته ، والتي هي عمليات حربية ومن مستلزمات الحرب قبل أن تكون من مستلزمات الادب .

وحتما كانت للشاعر المستنفر المداح الهجاء المفاخر وظيفة اجتماعية مرموقة بقدر ما كان الاقتتال العشائري أسلوب حياة غير بديل ...

وحتما ما كانت حياة البداوة تعطي للقبائل من خيرات البادية الا على قدر تمرس القبائل بأساليب الطيش والهيجان والكر والفر وتلميع السيوف وتطهيم الخيول . وحتما كانت الفضيلة للغالب لا للمغلوب ، وكانت البطولة للقاتل لا للمقتول ، وكانت الحياة الاحسن للقبيلة التي تجيد الكر والفر واثارة غبار المعارك كلما طرأت حاجة وحانت فرصة لغزو أو لهجوم أو لدفاع .

وحتما لا زالت الفضيلة كما كانت للغالب وستبقى البطولة للقاتل كما سيبقى العيش الحسن للمنتصر ...

لكن الفضيلة والبطولة والنصر لا يمكن أن تنال في قبة الحضارة المعاصرة بأساليب عنترية .

فالى البياتي اذن ودع عنترة العبسي جانبا ، فقد مات بطلا ، وعش بطلا بسواه ..

أما ان تشبثت بأسلوب العبسي في قبة هذه الحضارة فستموت حيا ... أجل مضى زمن القصيدة العنترية وانقضى زمن التهييج والهيجان ... والمجد للفكرة ولكرامة الفكر وللاحساس النبيل والهمسة الدافئة والفكرة الصائبة ... للفكرة الصائبة !

وليتذكر القارىء اننا لا زلنا في حانة الاقدار مع البياتي والخيام.. حانة ما فيها من أخطل صغير فيقول : « لم يكن لي غد فأفرغت كأسي ، ثم حطمتها على شفتيا » .

ولا أخطل كبير ليقول :

اذا ما نديمي علني ثم علني ثلاث زجاجات لهن هدير
خرجت أجر الذيل تيها كأنني عليك أمير المؤمنين أمير

ولا فيها من يقول ما قال أبو نواس :

حتى انثنيت ولي روحان في جسدي والدن منطرحا جسما بلا روح

أو ما قال طرفه :

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وانفاقي طريفي ومتلدي
الى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت افراد البعير المعبد

وليس فيها حتى من يقول :

اشرب فليلك هذا ضاع أكثره والليل من عمرنا انضاع لم يعد

فهي اذن « حانة أقدار » ... حانة يشربون فيها من ظلمات النور كؤوسا ويموتون صفر اليدين تحت قدم الخمار في سبيل فجر جديد.. انهم سكارى ولا كالسكارى ! انهم اولئك الذين يشترون بثمن الدواء تاجا للمدينة الفاضلة البعيدة مستعجلين انبلاج الفجر في ليل نيسابور ...

ولك الآن أن تسأل : وماذا اذن حصل للخيام بعد أن شرب ظلام النور وحطم الزجاجة ؟ أرأى الديك حمارا حين اشتد عليه السكر ، أم انه قد رأى موت القمر الاعمى ببطن الحوت ؟ وموت الديك قبل انبلاج الفجر ؟ أم اشتدت عليه الليلة من وطأة عهود بائدة اشتهرت الشمس بأقل من سعر الكلفة وأبدت الليل وخلدت العتمة فرقص مذبوحا وعرى البساتين من زهر البساتين ؟

أم انها لا هذا ولا ذاك ... وانها محض ليلة ليلاء في حافة الاقدار ؟ وان سهما قد أصاب الخيام :

« أصابك السهم ، فلا مفر ، يا خيام
ولتحسب الديك حمارا ، انها مشيئة الايام
الظبي في الصحراء
وراءه تجري كلاب الصيد في المساء
والخمر في الاناء
فصب ما تشاء
بقبة السماء
أو قدح البكاء
في حانة الاقدار
حتى تموت فارغ اليدين تحت قدم الخمار
رفيقك الوحيد في رحلتك الاخيره
لمدن النمل التي تحكمها الارقام والبنوك
يا أيها المملوك

بكم تبيع هذه القيود ؟
فهذه الليلة لن تعود
طارت ، كما طار بنا بساط ألف ليله
معانقين تحت أضواء النجوم « دجله »
وزارعين نخله
فداعب الاوتار
فديك هذا الليل مات قبل أن ينبلج النهار »

والآن أعندك فكرة عن أولئك الذين يأتون من المستقبل ومن أقصى حدود المستقبل في اللانهاية ؟ ويأتون الحاضر الراكد ... الحاضر الذي ألف مجيء الناس اليه من الماضي ومن الماضي دائما وباطراد ؟؟؟ أعندك الآن فكرة عن دخول الحاضر من المستقبل ، وعن أولئك الذين يأتون من المستقبل الى الحاضر المتشرب بالماضي حتى حد التخدير والنوم المؤبد ؟ أتدرك الآن صعوبة الذين يأتون من المستقبل ويلوحون للشمس بوردة وبثلاث بنفسجات وبست حبات مسك ويلوح لها المرابون الذين جاءوا من عهود بائدة برزمة دنانير ويشيرون اليها برفة طرف من دينار وبخفقة من ليرة فتشرق عليهم ويظل الذي جاء من المستقبل في حانة الاقدار وفي ليل مات فيه الديك قبل انبلاج الفجر .

وما أغرب أطوار الذين يأتون الحاضر من المستقبل بشدة ورد ، وبنرجسة واحدة وبعشر بنفسجات ليصنعوا منها تاجا للمدينة الفاضلة البعيدة ؟؟

ما أغرب أطوارهم اذ يحسبون ان الكرامة أولا واذ يحسبون ان صنع تاج للمدينة الفاضلة البعيدة ، ولامنا الارض التي تولد كل ساعة جديدة يعود عليهم بغير تشريد في صحارى الاضطهاد ومن ورائهم كلاب الصيد لاهثة ومؤملة على الصيد مكافأة الصياد وثوابه لقبا ومنصبا وليرة ودينارا وهاجا ، ووجاهة مستعارة رهن مدى حاجة الصياد الى كلب ..

وكلاب الصيد رمز لطبقة خاصة تظهر في شعر البياتي وتلازمه من بواكير شعره وحتى أطواره الاخيرة ... ولهذا دلالة تفوق بدلالتها الصيغة الحرفية في وضوح الدلالة ومطابقة الطبيعة والوظيفة ... طبيعة ووظيفة كلاب الصيد طبعا .

وقضية الخيام في حانة الاقدار هي قضية البياتي أولا وقضية كل من يرى ان له فيها قضية ...

ان مثل هذه الرؤية تعتمد على مدى احاطة القارىء بجو القصيدة الحسي ، وأعني بهذا الجو الذي عاشه البياتي أو تخيله مكانا وزمانا وأشياء وأحداثا ، ويعتمد على مدى ادراك القضية قبل ان ينقلها الشاعر الى حانة والى حانة الاقدار ثم الى حوار داخلي وأصداء تختلط بهذا الحوار حتى يتساوى على القارىء أن ينفذ الى جو القصيدة كيفما يشاء : على انها حوار يدور في نفس الخيام ويردده لنفسه ، أو على انها أصداء تأتيه من بعيد ، أو على انها خطاب شخص من مديري حانة الاقدار ، ومن الذين شربوا من نور الظلمة ألف كأس وكأس وحتى انكشفت لهم الحقيقة عارية على صرح مسرح الحانة المنهار ، في ليل نيسابور ، ورأوا الديك حمارين ، وولدوا وماتوا مرتين ، وأضاعوا الخيط والعصفور ... وتفقهوا في خفايا وأسرار العتيق والجديد من الخمور ، وصار واحدهم عليما في مفاتيح الغيب ومغالق خفايا الاحوال والامور ، وجهبذا يستعجل الخيام ان يستعجل الخيام أفراح ليلة : « فالخمر في الاناء والظبي في الصحراء وراءه تجري كلاب الصيد في المساء » .

ويؤكد مريد حانة الاقدار ، والذي يبدو انه قد ذاق الخمور جميعا ، وسكر بكلها مرتين ـ والا فكيف يحق له أن يستنهض همة الخيام الى شربه ؟ وكيف يحق له أن يستعجل الخيام أن يعب ما يشاء بقبة السماء أو بقدح البكاء بحانة الاقدار ؟ يؤكد الجهبذ على أن ليس للخيام من رفيق في دربه الى مدن النمل التي تحكمها البنوك سوى خمار حانة الاقدار ... اذن فليشرب الخيام وليشرب وليشرب حتى تكتب له الشهادة تحت قدم الخمار :

« حتى تموت فارغ اليدين تحت قدم الخمار
رفيقك الوحيد في رحلته الاخيره
لمدن النمل التي تحكمها الارقام والبنوك »

وفي مدن النمل التي تحكمها الارقام والبنوك اشارة صريحة الى الرأسمالية الغربية ، النظام الذي أوقف البياتي شعره على هدمه... والنظام الذي لو بعث الخيام وراءه لما أقره ... نظام « مدائن النمل التي تحكمها الارقام والبنوك » ، والنمل اشارة الى انسحاق وضآلة البشر تحت وطأة أقدام سلطة الارقام والبنوك ... كما ان في النمل اشارة الى اللؤم والبخل والجشع والتقتير والادخار ... صفات لا زالت تلازم الانسان المعاصر ، لكنها حتما الى زوال وان طال بها البقاء عيبا مؤسفا في شخصية هذا الانسان الرائع !! انسان مرت عليه قرون وكانت تكفيه فيها من كل خيرات الارض وبركات السماء تفاحة عشاء ويتوسد بعد العشاء حجرا أو كومة حشيش يابس أو أخضر أو حزمة من ليف أو لا يتوسد غير ذراعه ... وينام الليل قنوعا ملء العينين رضى وملء الجفنين ...

وخرج من الجنة مطرودا ومغضوبا عليه اذ طمع في شيء يخصه دون غيره واذ طمع بما فوق ما يسد الحاجة واذ طمع في أن يدخر قوت الغير من أجل أن يجوع الغير ...

ووقع في شراك الادخار فالعملة فالدولة ... ثلاث ظلمات ... واشتدت عليه القيود مرتين : قيود مصانع أسلحة وبارود ومختبرات علوم الموت تستنزف من دم عروقه وتشرب من عرق جبينه ... وقيود حكومات تسوقه الى الموت ... لكن الانسان أقوى من كل القيود ... اذ لا زال في الناس من ـ ولو شعرا ـ من يشتري القيود في سبيل تحرير الانسان ومن أجل أن يعتقه من ربقتها :

« يا أيها المملوك
بكم تبيع هذه القيود
فهذه الليلة لن تعود ... »

وهنا ، وباخلاص ، أجد انني لا أرى في نهاية ليلة حانه الاقدار سوى :

« اشرب فليلك هذا ضاع أكثره والليل من عمرنا ان ضاع لم يعد »
« فداعب الاوتار
فديك هذا الليل مات قبل أن ينبلج النهار »
« وداعب الاوتار ... وداعب الاوتار
حتى تموت فارغ اليدين تحت قدم الخمار »

ويا للمأساة ! مأساة الذي يأتي من المستقبل فيجد نفسه أحيانا موزعا بين :

« معجزة الانسان أن يموت واقفا »

و :

« متمناي سكرة قبل موتي وصياح الاطفال يا سكران !! »

وبين :

« معجزة الانسان أن يموت واقفا »

و :

« فعب ما تشاء ـ بقبة السماء أو قدح البكاء ، في حانة الاقدار حتى تموت فارغ اليدين تحت قدم الخمار »

ويتخلص البياتي من المأزق بين الموت وقوفا والموت تحت قدم الخمار في « الطردية » اذ يعود على ما يشبه أن يكون « فاليوم خمر وغدا أمر » :

« مولاي ، قال النجم لي ، وقال لي الرماد
اياك والفرار
أمامك البحر ومن ورائك العدو بالمرصاد
والموت في كل مكان ضرب الحصار
فلنشرب الليلة حتى يسقط الخمار
في بركة النهار »

ويرجع البياتي الى كلاب الصيد والى الظبي الطريد في الصحراء

لكنه يستعير الارنب المذعور رمزا للطريد بدل الظبي :

« الارنب المذعور عبر الفسق الغارق في الضباب ... تنهشه الكلاب »

ويقع الارنب المذعور صيدا جريحا عند الصياد ويضج البياتي مفتديا الحياة في هذا الانسان :

« بكم تبيع ، أيها الصياد
شهادة الميلاد ؟ »

وشهادة الميلاد عند البياتي تعني الحيـــاة وتعني حق الحياة . وأرى ان البياتي قد أفلح كثيرا في اعتباط هذا الرمز ، اذ انه ينقل اليك بكلمتين « شهادة الميلاد » جانبي القضيـــة : جانبها الفرضي الطبيعـــي المنطقي الحياتي المتمثل في قـــدسية حق الحياة المطلق ، وجانبها الوضعي اللاطبيعي اللامنطقي اللاحياتي واللاانساني والمتمثل في الاستهانة المتهورة في حق الحياة حتى صار هذا الحق شيئـــا يعطى ويمنع ... وان خنق روح محض سحب شهادة ميلاد من انســان أرأيت ؟ اذن لا تعجب حين :

« شيخ المعرة الضرير يفتح الكوة في اكتئاب
ويحدج السماء
بنظرة ازدراء ... »

وهنا أرى ان البيـــاتي قد وفق في اختيار أبي العلاء رمـــزا للشخصية المقدسة للحياة بما هي حياة ومن أجل الحيـاة ... اذ ان المعروف عن أبي العلاء ـ في حدود معرفتنا لواقع شخصيته التاريخية ـ انه قدس واحترم الحياة حتى في البهائم السائمة وترك بسبب هـــذا تناول الاغذية ذات المصدر الحيواني وعاش نباتيا كل عمره ...

ويستطرد البياتي نادبا موت الصيف وغرق النهار في البحيـــرة الكبيرة وفي رحلة الطيور ، وكل هذا اداء رمزي سهل التناول ويسير على الفهم ... فالصيف دليل خضرة والخضرة دلالة حياة والخريف دليل اصفرار وذبول وتساقط الاوراق ، وكل هذا دليل موت حرفيا وطبيعيا وحسيا في مألوف حياتنا ، كما الصيف والخضرة دلالة حياة حرفيا وطبيعيا وحسيا ... حتى تـــوشك هذه الرموز أن تكون اداء بديهيا لا يستحسن شرحه الا لواحد ما رأى صيفـــا ولا خضرة ولا خريفا ولا تساقط أوراق ؟ ومن عسى هذا أن يكـــون ؟ ليكن غيرك ! فانت حتما تعرف ان الطيور لا تهاجر الا نحو الملائم ولا تهجر الا مـــن ضيق طقس الجو وفي رزق الارض ... وتعرف حتما ان الارنب المذعور دلالة على الرعب والخوف ، وتعرف حتما الصياد من كلاب الصيد ... أم ترى ان بنا حاجة الى حفنة من جمل فارغة نسب فيهـــا ونشتم ، ونحنق ونتعتر ، ونصرخ ونستصرخ ، ونهيج ونحقد ، ونسب العنـــب الاسود والابيض والحصان الاشهب ليستوي لنا من كل هذا أدب التزام يصعد الفكر ثوريا تصعيدا تشيب من هوله الغربان ويشيب من بلوغه مستوى المسؤولية كل رضيع ؟؟

لا ... سوف لن نلتزم قضايا تصعيد الفكر الثوري في مستـــوى مسؤولية الصراخ الحانق ومسؤولية الخطب الهوج ، فكل هذا عيـــب ، وعيب ما بعده من عيب ...

واقرأ معي بهدوء اذن من أجل فكرة صائبة ومن أجل برود عقـــل واتـــزان :

« الصيف مر ، والخريف يغمر الغابة بالاوراق
أهكذا ينتحب العشاق ؟
ويغرق النهار في البحيرة الكبيره ؟
وترحل الطيور
والارنب المذعور
يموت تحت أقدام الصياد »

فاهدأ واغضب برباطة جأش ... ورباطة الجأش تعني السكينة.. فاغضب بهدوء وبعمق ... فالارنب المذعور قد يكون أنت وقد يكـــون أيا من الذين عرفت أو لم تعرف في ظروف ستصير فيها قدسية حـــق الحياة محض شهادة تعطى وتمنع !

فاهدأ والتزم عمق الاحساس النبيـــــل ... الاحساس بحب الحياة ... واغضب بعمق وبصمت وقدس احساسك بقدسية الحياة.. فانت تحب الحياة لا شك ، فاغضب كلما وجدت استهانة بحق حيـاة انســـان :

« فالارنب المذعور
يموت تحت قدم الصياد
مخضبا بدمه الاوراد
لوركا يجر واقفا للموت في الميلاد
أمامه كانت كلاب الصيد تجري
تنبح للجلاد »
« أهذه الآلام ؟
وهذه السجون والاصفاد ؟
شهادة الميلاد ، يا خيام
في هذه الايام ؟ »

وبعد أن دفن البياتي رأسه في الرمال مثلما تدفن نعامة رأسهـا حين الخطر الماحق ، وبعد أن رأى الموت في سراب امتد وامتد حتـى أيقن الشاعر من الموت عطشا ، بدت له وقد أشرف على الهلاك سحنـة فقير العالم الجواب تمد اليه يدا في الظلمة وقـــواه على المحنة : اياك والفرار :

« فقير هذا العالم الجواب
ينام في الابواب
يمد لي يديه في الظلام
ويقرأ التقويم بالمقلوب
بحيلة المغلوب :
مولاي ، قال النجم لي ، وقال الرماد
اياك والفرار
أمامك البحر ومن ورائك العدو بالمرصاد
والموت في كل مكان ضرب الحصار
فلنشرب الليلة ، حتى يسقط الخمار
في بركة النهار »

أم ترى ان فقير العالم الجواب قد قوى الخيام على السكر ولا أكثر وعلى الغيبوبة ولا غير ... وعلى شرب يسقط منه عميد الحانـة وجهبذ الخمريات ولا يسقط الخيام ...

لكنها محض هداية مغلوب يقرأ التقويم بالمقلوب ، ويرى البطولة في أن يسقط الخمار في بركة النهـــار من شدة الشرب ولا يسقط الخيام ... « وظن ما تشاء » ... وأضف الى ظنونك انها مقاومـــة الصحو بسكر والواقع بخيال والحقيقة بشعر ... انها الرجولة بين.. بين أن ينسحق الانسان مستسلما منصاعا ، أو أن يعنتر على حصـان من خشب وترس من قطن وسيف من قصب ... فهي اذن مرحـــلة صمت الكرامة المحاصرة بمواكب الجهل الاكبر ... وهي حتما مرحلة ذهول المنطق المغلوب على أمره في حصار هاجت فيه البلادة وتعنتـرت الحماقة طيشا واشتد من هيجان البلادة وتعنتر الحماقة على المنطـق حصان يحرم وقدة الذكاء ، ولمعان النباهة واشراق الفكر ...

أما ان شئت اداء حرفيا وصورة قريبة الى الذهن فهي حينئـذ حد الوسط بين بين ... وحد الاتزان ورباطة الجأش ومتانة صبـر الانتظار في مقاومة ترعتين مرذولتين فرار الجبان واندفاع الاهوج ... والفضيلة ـ ان كان لا بد من موعظة حسنة وبلهجة أرسطية : وسط بين طرفين مرذولين افراط وتفريط . لكن لهذه الحكمة حدودا تنتهي عند كون الاعتدال والتريث وطول الانتظار محض وسائل وليست بغايات مقصودة لذاتها والا استسلم الانسان والى الابد لمنطق فترات الذهـول فترة بعد فترة وقرنا بعد قرن وأذاقت الانسان علقم العيشة الضنكى.. وهي مرارة علقم لا تخفف منها مطاولـــة الخيام سكرا للخمار ... أضف ـ ان شئت حصافة ـ ان الخيام قد يصحو بعد طول السكر على القضية واذ هي عبر حدود الحل على الصاحي اليقظ وعلى الحـــالم

السكـران !

ولئن طافت بك طيوف الشعر في أحلام يقظة مثلما طافت طيوف الفلسفة بافلاطون ، وشئت مستوى فلسفيا من واقع الحياة لمعنـــى مطاولة السكر مع الخمار وحتى يسقط الخمار فمعناه أن تنبنى لـــك أكاديمية يحسبك الناس محض فيلسوف يداري فلسفـــة تحتضر ... أو محض سكران يطاول الخمار سكرا في حانة الاقدار ...

وهذا ما جرى لافلاطون بعد أن غسل يديه من شؤون اثينا التـي اختلطت فيها الامور وأذلها الفرس وأهانتها اسبارطة وفشل فيهـا كل ما وصف لها الساسة بما في الساسة افلاطون والذي شهد انهيـــار حكومتين ساهم فيهما عضوا عاملا : حكومة الثلاثين وحكومة الخمسين. وساءت الحالة وضاقت آفاق اثينا في عيني افلاطون ، وبدأ يحـاول فتحا فلسفيا في الجزائر النائية والممالك البعيدة ... وحاول الفتـح في صقلية وفي دويلات آسيا الصغرى وفي كل مكان بلغته رسالتـــه ورسله أو وطئته قدماه ... وحتى استنزفت محاولة تحقيق الاحـلام قواه وبيع عبدا !

ورجع الى أثينا يطاول الخمار سكرا وحتى سقط الخمار ومـا سقط افلاطون . ثم هي وقبل كل شيء ، حالة البياتي في غربته محاولا مطاولة الخمار سكرا : مطاولا الحقيقة بشعر ، والواقع بخيـــال ، والحاضر بالماضي وبالخيام وبمطاولة الخيام للخمار سكرا حتى يسقط الخمار ... ومحاولا ، بمستوى وبمقدار ، مقاومة مرارة الواقع بحجة المغلوب على أمره ... بحجة فيها برود عقل واتزان حكمة ونبـــل احساس وسط ضجة رؤوس هائجـــة في موكب الهيجان الاكبر ... « والموتى لا ينامون » :

في سنوات الموت والغربة والترحال
كبرت يا خيام
وكبرت من حولك الغابة والاشجار
شعرك شاب والتجاعيد على وجهك والاحلام
ومات في داخلك النهر الذي أرضع نيسابور
وحمل الاعشاب والزوارق الصغيره
الى البحار ، حمل البذور
وعربات النور
الى غد الطفولة ...

وكل هذا سهل ، فقد كبر الخيام وشاب شعره وبدت التجاعيد على وجهه وماتت أحلامه ... وكل هذا طبيعي مألوف ... وبمـــوات الاحلام مات في داخل الخيام نهر الخصب ونهر نور الفكر ... النهر الذي أرضع نيسابور واخضوضرت المدينة راقصة بشوشـــة عـــلى ضفتي المجرى ... مجرى النهر الذي حمل الزوارق الصغيرة والبذور من أقطار بعيدة الى نيسابور ... فهو نهر الفكر ومجـرى النور ... وحمل فيما حمل الى نيسابور عربات نور من حكمة ... ونور مـــن فلسفة ... ونور من شعر .

وكبرت من حول الخيام القبيلة ، وماتت عائشة ، ومرت سفينة الموتى بلا شراع وتحطمت على شاطىء الضياع :

« قالت ومدت يدها : الوداع
أراك بعد الغد في المقهى وغطت وجهه سحابه ،
من الدموع بللت كتابه »

وتتجلى في هذه الفقرة روعة القاء ثوب معاصر على عائشة وعلى الخيام ، وربما هذا أول استعمال « للمقهى » في عبارة شعرية رائعة عبر أطوار الشعر العربي كله .. وحتما سيأتي يوم تصير فيه للمقهى وللفندق ولمحطة القطار منزلة « الدخول وحومل » بعد أن يرتفـــع الاحساس والتذوق الى مستوى حياتي معاصر وبعد أن تتجانس الحياة موحدة وفق مقاييس حضارية معاصرة .

ويشتد الحوار على الخيام عن عائشة روحا خفيفة تذرع الحديقة فراشة طليقة رغم الموت وعبر جسر الحياة الطائف من الموت البهيم :

« عائشة ماتت ، ولكني أراها تذرع الحديقه
فراشة طليقه
لا تعبر السور ولا تنام
الحزن والبنفسج الذابل والاحلام
طعامها في هذه الحديقة السحريه »

وتقتات عائشة الحزن والبنفسج الذابل والاحلام ـ على تاريخ ذبل في البنفسج وعلى مستقبل تداعبه الاحلام ... وهي في الحديقة لا تأخذها سنة فتنام ، ولا هي قادرة على عبور السور . وعائشة هـي قطب غوث الخيام وقطب غوث البياتي وقطب غوث كل خيام وكل بياتي وكل متطلع الى الحقيقة في فراشة طليقة :

« أيتها الجنيـــة !!
تناثري حطام
مع الرؤى والورق الميت والاعوام
وخضبي بالدم هذا السور
وايقظي النهر الذي في داخلي مات ورشي النور
في ليل نيسابور »

وهذه الفقرة عودة على :

« ومات في داخلك النهر الذي رضع نيسابور
وحمل الاعشاب والزوارق الصغيره
الى البحار ، وحمل البذور »

عودة يستحي بها الخيام النهر الذي مات في داخله ... ويطلب القوت من « الجنية بلهجة هلاهل متفائلة :

« ولتبذري البذور
في هذه الارض التي تنتظر النشور »

... أرض اختلطت مشارقها بمغاربها وأهلوها أحياء لا يحيون .. وأحياء يهرمون ألف مرة ويعود اليهم الشباب ألف مرة في اليـــوم ويهرمون .. ويموتون في الساعة ألف مرة ويبعثون ويموتون أحيـــاء ويبعثون ويحيون ولا يحيون ... يعيشون ولا يحيون ... أحياء بين بين ولا يحيون ... وأموات بين بين ولا يموتون ... وحياة في الموت وموت في الحياة ... يأتون ولا يأتون ...

بغداد — مدني صالح

شعـــر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
● الاعاصير	للشاعر القروى	٣٥٠
● وجدتهـا	لفدوى طوقان	٣٠٠
● وحدي مع الايام	« «	٣٠٠
● اعطنا حبا	« «	٢٥٠
● ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
● فى شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
● المشانق والسلام	لعدنان الرأوي	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسين النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الناس في بلادي (ط. جديدة)	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● الحياة الحب	لابراهيم محمد نجا	٣٠٠